
Victor Hugo
رواية
فيكتور هوجو
Telegram:@mbooks90
رجل نبيل
ترجمة : سامي غنيم

# الجزء الأول

# الفصل الأول

كان الاحتفال بالكريسماس عام 1882 من الأيام التي لا تنسى في جزيرة جيورنسي فقد كان المطر ينهمر غزيرًا في ذلك اليوم وهو أمر غير مألوف في الجزر التي في القنال الذي يفصل بين انجلترا وفرنسا. ففي الصباح كان الطريق الممتد من شاطئ ميناء سانت بيتر إلى الوادي مغطى بطبقة من الثلج الأبيض حيث ظل انهمار الثلج مستمرًا منذ منتصف الليل حتى طلوع الشمس، وكانت الساعة التاسعة وكان الطريق شبه خال، إذ لم يتعود الناس الذهاب إلى الكنيسة في تلك الساعة المبكرة من الصباح، ولم يظهر على طول الطريق غير ثلاثة أشخاص احدهم رجل والثاني امرأة والثالث طفل. وكان منهم يسير مبتعدًا عن الآخر إذ لم يكن يبدو أن بينهم أي معرفة أو رابطة ثم توقف الطفل وكان في حوالي الثامنة من عمره ليرقب منظر الشتاء واستمرت المرأة في المسير يتبعها الرجل وبينهما مسافة تبلغ مائة خطوة تقريبًا وقد بدا عليهما أنهما آتيان من ناحية سانت سامبسون. وكل الرجل مرتديًا ثيابًا تشبه تلك التي يرتديها العمال أو البحارة الأمر الذي كان لا يوحي بأنه متوجه إلى الكنيسة في تلك المناسبة المقدسة.

وكان حذاؤه الجلدي السميك الذي نعله مسامير غليظة يترك على الثلج آثارًا تشبه قفل باب السجن أكثر مما تشبه قدم. أما المرأة فكانت على العكس مرتدية من الثياب ما يناسب زيارة الكنيسة. فكانت ترتدي معطفا من الحرير الأسود يغطي رداء من البوبلين الايرلندي المحلى بأشرطة حمراء وبيضاء، كان جوربها الأحمر يجعلها أقرب في الشبه من النساء الباريسيات. وكانت - خطواتها القصيرة الخفيفة توحي بمدى تخففها من أعباء الحياة. وكانت صغيرة شابة تمر بمرحلة الانتقال إلى الأنوثة الكاملة.



لم يكن يبدو على الرجل أنه يرقب الفتاة التي تسير أمامه ولكنها ما إن بلغت منعطفًا في الطريق بجانب بعض أشجار البلوط حتى انحنت على الأرض كأنها تلتقط شيئًا ثم نظرت إلى الوراء وابتسمت وكانت هذه الحركة كافية ليعرف فيها ديروشيت - إحدى فتيات جيرانه الجذابة. ثم لم تلبث الفتاة أن أسرعت الخطا حتى اختفت عن ناظريه، ولم يبد عليه أنه يريد أن يتبعها، بل سار بسرعته الأولى، وما أن وصل إلى المكان الذي انحنت فيه حتى فوجئ بوجود كلمة منقوشة على الجليد "جيليات"، كانت المفاجأة أن جيليات هو اسم الرجل، ولذا فقد وقف برهة يتأمل دون حراك وناظره متجه إلى الأحرف المنقوشة على الجليد.

ثم لم يلبث أن واصل سيره في تفكير عميق.

# الفصل الثاني

**كان جيليات يعيش في حي سانت سامبسون ولم يكن محبوبًا من جيرته، وكان هناك من الأسباب الوجيهة ما يبرر ذلك.**

فما زال الناس من جيورنسي يذكرون امرأة أتت ومعها طفل ليقيما هناك، وكان هذا الطفل هو جيليات. عاشت المرأة وطفلها وحيدين وكان البعض يقول أن الطفل هو ابن أخيها على حين ظن البعض الآخر أنه ابنها، وزعم فريق ثالث أن الطفل لا هو ابن ولا قريب وإنما هي تتولى تربيته ورعايته، وكان لديها بعض المال الذي يمكنها من أن تعيش عيشة متغيرة واشترت قطعة من الأرض لتتولى زراعتها. وكان منزل بودي لارو مسكونًا بالأرواح في ذلك الوقت ومر عليه ثلاثون عامًا لم يجرؤ أحد أن يسكنه حتى أنه أصبح على وشك التداعي. وكانت حديقته مهملة جرداء وهكذا كانت سمعة ذلك البيت حتى أن أصحابه عرضوه للبيع بمبلغ زهيد وتقدمت المرأة الغريبة واشترته، وربما أغراها الثمن البخس.

واستقرت المرأة مع طفلها في ذلك المنزل ومنذ ذلك الحين رفرف السلام بين جدرانه ولم يعد الناس يتناقلون سير الأشباح أو الأرواح التي تعودوا يروها فيه واستطاعت المرأة أن تزرع قطعة الأرض التي تملكها بمساعدة بقرة حلوب كانت تملكها وقامت بإصلاح المنزل وجعله صالحًا للسكن وكان يتكون من طابق أرضي به حجرتان للنوم وأخرى للطعام ويصله "بالطابق" الأصلي سلم خشبي متحرك. وكانت المرأة تعد الطعام على حين تشجع الطفل على القراءة ولم تكن تتردد على الكنيسة، الأمر الذي أثار الكثير من الشبهات والأقاويل عليها وجعلها تبدو كاللغز أمام جيرانها.

وبينما تقدمت المرأة في السن ترعرع الطفل وكبر وصار شابًا يانعًا واستمرا في حياتهما المنعزلة عن الناس.

وكما تتساقط الأوراق القديمة من فوق الشجر، ماتت المرأة تاركة الشاب بعدما بلغ مرحلة الرجولة، ومخلفة له قطعة الأرض والمنزل ذا الحديقة ومائة جنيه ذهبية كانت مخبأة في جورب قديم وكان من بين ما خلفته المرأة له صندوق مغلق به الكثير من ملابس السيدات الحريرية والقطنية وقد كتبت عليه من الخارج "من أجل زوجتك عندما تتزوج".

كان موت المرأة ضربة شديدة وقعت على رأس جيليات فهو لم يكن اجتماعيًا ولذا فقد تركه موتها وحيدًا.. ونحن عندما يكون لنا في الحياة رفيق فإن الحياة تكون محتملة أما إذا فقدنا ذلك الرفيق فإن الحياة تبدو حينئذ مستحيلة، ويدب اليأس في نفوسنا وبمرور الوقت نجد

أنفسنا نتأمل الحياة، نتأمل نحن الموت ثم نستسلم، ولكنه استسلام يجعل قلوبنا تدمي. ولقد كان جيليات شابًا وسرعان ما اندمل جرحه وتبخر حزنه بالتدريج وببطء وأصبح يحن أكثر إلى العزلة والانفراد.

# الفصل الثالث

لم يكن جيليات كما قلنا محبوبًا من أهل الحي وكان ذلك النفور المتبادل بينه وبين بقية الناس هناك طبيعيًا.

ولقد كان جيليات مسئولًا إلى حد كبير عن حياة العزلة التي فرضها على نفسه فهو لم يذهب إلى الكنيسة قط، كما أنه تعود أن يمشي بالليل دون النهار. وكان يتحدث مع السحرة والعرافين وكان له تصرف معين يثير الغرابة لدى الناس وهو أن يشتري ما يعرض عليه من طيور ثم يطلق سراحها لتطير في الفضاء، وكان كثير الخروج لاصطياد السمك كثير الغنم منه، يشتغل أيام الآحاد في حديقته، ويلعب على آلة موسيقية اشتراها من أحد الجنود عندما يكون وحيدًا بين البحر والصخر.. كل هذا كان دافعًا للناس أن يتباعدوا عنه وأن يتباعد عنهم.

وكان عند جيليات ما يجعله يبدو غنيًا أمام الذين يملكون أي شيء وكما أن هناك من النساء من تقدم على التزوج من الشيطان نفسه إذا كان يبدو في نفس نظرها غنيًا، فإن إحدى فتيات جيرته سألته ذات مرة:

- متى تنوي أن تتزوج أيها الجار جيليات؟

وكانت إجابة جيليات قاطعة إذ قال:

- سأتزوج عندما تتخذ روكودي شانت لها زوجًا.

ولم تكن روكودي شانت هذه إلا صخرة كبيرة غريبة تقف وسط أحد الحقول، ولم يكن أحد يدري السر في وجود هذه الصخرة وسط هذا الحقل وأحيانًا كان يسمع من ناحيتها صياح ديوك - وهو أمر كان يبدو في منتهى الغرابة.

وعلاوة على ذلك فقد كان لجيليات مزاج غريب فقد حدث إن رأى أحد الناس يضرب حمارًا صغيرًا عاصيًا حتى مات من شدة الضرب، وما إن حدث ذلك حتى اندفع جيليات ناحية ذلك الرجل وأوسعه ضربًا بكل ما أوتي من عزم. ومرة ثانية رأى أحد الأطفال يجلب من فوق الشجرة عش طير أزغب، فأخذه منه وأعاده إلى مكانه على الشجرة، وكان هناك بعض المارة الذين رأوا ما حدث وانحازوا إلى صف الطفل غير أن جيليات لم يهتم، بل كان همه موجهًا ناحية طيرين هما والدا الطير الصغير صاحب العش - وهما يحومان فوق العش وقد أنسا إلى جيليات. تلك كانت صفة مميزة لجيليات وهي حب الطيور ولقد كان يقاسي الكثير في سبيل منع الأطفال من انتزاع عشاش الطير من فوق الأشجار.

**تلك هي بعض الأسباب التي أدت إلى وجود النفور بين الناس وبين جيليات.**

# الفصل الرابع

**تلك كانت شخصية جليات.**

كانت النساء يعتبرنه دميمًا ولكنه لم يكن، بل ربما كان أنيقًا. كانت في ملامحه بعض البربرة القديمة، التي تقربه من قدامى اليونانيين فأذناه كانتا صغيرتين رقيقتين بدون حلمات وكان يمتد بين عينيه شريط كثيف من الشعر يوحي بشجاعة صاحبه على حين كانت جوانب فمه مطبقة مكتئبة تحمل إحساس المرارة، وكانت جبهته عريضة هادئة. وكانت نظراته طويلة ثاقبة وضحكته مرحة وأسنانه بيضاء كقطع من العاج، وأكسبه المحيط وعواصفه خبرة ومناعة، فبدا وهو ابن الثلاثين كرجل في الخامسة والأربعين، وكان ذا قوة بدنية شديدة يستطيع أن يحمل حمولة مارد أو يسير كأحد أبطال الرياضة.

لم يحمل في يده بندقية قط بل كان دائمًا يسير وفي يده شبكة صيد، وبرغم أنه كان يطلق سراح الطيور فقد كان يهوى صيد السمك، وكان على قدر كبير من المهارة في السباحة.

وبرغم كل هذا فقد كان جيليات مجرد رجل بسيط فقير لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب كثيرًا، بجولاته المستمرة بين الصخور وركوبه كل أنواع القوارب متنقلًا بين جزيرة وأخرى من الجزر الكثيرة المنتشرة من القنال الإنجليزي تحت كل الظروف الجوية المختلفة مرتادًا معظم الممرات المائية بالليل وبالنهار، بذلك صار بحارًا ماهرًا غير عادي ولقد كان يبدو عليه أنه يستطيع أن يسوس أعماق البحر لا سطحه فقط. وأنت لو رأيت جيليات يتنقل بقاربه بكل سهولة ويسير فوق سطح الماء لظننت أن في رأسه خريطة لأعماق البحر وأسراره.

ولقد ظهرت مهارته النادرة كبحار حاذق بطريقة بارزة ذات يوم في جيورنسي في إحدى المسابقات التي تقام هناك لاختيار حنكة البحارة ومهارتهم وكان المطلوب أن يبحر الشخص بزورق مسافة فرسخ واحد من سانت سامبسون إلى جزيرة "الهرم" دون أدنى مساعدة ثم يعود.

وكان قطع مثل تلك المسافة بزورق به أربعة أشرعة فقط يعد بين الصيادين عملًا سهلًا ولكن كان هناك شرط يعقد العملية كثيرًا.

فقد كان الزورق من النوع الثقيل الوزن الذي يجعل الإبحار به صعبًا كما أن المتسابق يجب أن يحمل الزورق بالحجارة في رحلة العودة.. أي أن الزورق يكون فارغًا في الذهاب محملًا في العودة وكانت الجائزة هي الحصول على الزورق نفسه.

وقد كان ذلك الزورق ملكًا لأحد البحارة الأشداء الذي قضى ما يقرب من عشرين عاما في

**رحلات مستمرة على الزورق نفسه من القنال الإنجليزي وعندما مات لم يتمكن أحد من قيادة الزورق ولهذا نظم هذا السباق ووهب الزورق ليكون من جائزته.**

**ولقد كانت جائزة مغرية حقًا، تسابق الكثير في سبيل الحصول عليها.. فقد تقدم سبعة أو ثمانية من أمهر الصيادين ليخوضوا التجربة، وحاول الواحد تلو الآخر ولكن أحدًا لم يستطع الوصول إلى جزيرة الهرم وكان لآخر من جرب حظه شهرة أنه عبر القنال الصاخب من سارك حتى برك هو في قارب ذي مجدافين، غير أنه في هذا السباق عاد دون أن يكمله قائلًا:**

- إن هذا لمن المستحيل.

عندئذ تقدم جيليات وقاد الزورق خارج الميناء بكل سهولة ولم تكد تمضي ثلاثة أرباع ساعة حتى كان قد وصل إلى "هرم" وبعد ثلاث ساعات أخرى وبرغم هبوب نسمة ريح أهاجت أمواج البحر فإن جيليات وصل بزورقه إلى سانت سامبسون بحمولته من الأحجار بل إنه جلب معه أيضًا مدفعًا قديمًا مصنوعًا من البرونز جرى الناس هناك على عادة إطلاقه كل سنة يوم الخامس من نوفمبر في ذكرى وفاة جاي فوكس.

وهكذا استطاع جيليات - برغم الحمولة الثقيلة والمدفع الذي أحضره تطوعًا، والمسير بعكس التيار - أن يقود الزورق في رحلة الذهاب والعودة.

وتقدم منه ليذري صائحًا:

- أنت بحار مدهش.

ثم مد يده مصافحًا مهنئًا وسنتحدث عن ليذري بعد قليل.

وانتقلت ملكية الزورق إلى جيليات، ومنذ ذلك اليوم لم يستعمل جيليات أي زورق خلاف ذلك الزورق القديم، فقد كان يخرج به في رحلات صيده وحين يعود يربطه في المرسى الخاص به والذي اقامه خلف حائط منزله المطل تقريبًا على الشاطئ. فإذا ما جن المساء حمل شبكة ثم اخترق حديقته وتسلق الجدار الحجري الذي يفصل المنزل عن الشاطئ حتى إذا ما وصل إلى الزورق ركبه وانطلق إلى جوف البحر. وكان يصطاد كميات كبيرة من السمك، وعندما كان يفيض ما يصطاده عن حاجته، لم يكن يبيعه بل كان يهديه إلى للفقراء أو الذين كانوا يتقبلون هداياه ولكن دون أن يشكروه.

كان جيليات صائدًا ماهرًا، ولكنه بالغريزة أو للمتعة مارس أربع حرف أخرى.

فقد كان نجارًا وحدادًا وصانع عجلات ومهندسًا ولم يكن في جيورنسي من يستطيع إصلاح

**العجلات مثله وصنع لنفسه كل الأدوات التي يستعملها في الصيد.. أو ما يحتاج إليه من آلات زراعة أو شيء آخر.**

# الفصل الخامس

كان ليذري من المواطنين المرموقين في سانت سامبسون وكان بحارًا مشهورًا قام بكثير من الرحلات، بدأ حياته وهو صبي "قمرات"، ثم بحار، ثم ناضورجي، ثم مساعد ملاح أول حتى وصل إلى رتبة ربان.. وهو الآن مالك سفينة ولم يباريه أحد فعرفه البحر، وكان شجاعًا في المسارعة إلى السفن التي تجتاز الأزمات، فإذا ما جاءت الأخبار عن سفينة ما في مأزق لم يكن يسأل عن نوع السفينة ولا عن صاحبها ولا عن وجهتها بل كان كل ما يهمه هو أن يقفز في قارب سواء كان وحده أو مع اثنين أو ثلاثة من معاونيه حسبما يتفق ويلقي بنفسه في البحر وموجه وعواصفه يرتفع وينخفض ويقف مع الخطر وجها لوجه أحيانًا ويقضي أيامًا يصارع الموج وينقذ الأنفس والبضائع وينتزعها من أفواه العواصف والأمواج، ثم إذا ما عاد إلى منزله.. فإنه يقضي شطرًا من ليلته يرتق جواربه في هدوء.

هكذا قضى حياته حتى بلغ الستين. وعندما بدأ يحس بأن قوته لم تعد تساعده، وعندما تسللت آلام الروماتيزم لتحبسه في سجنها وجد نفسه مضطرا إلى هجر البحر والتخلي عن ارتياده.

وكالمعتاد، يتكون سكان الجزر من صنفين من الناس زارعين قضوا حياتهم يفلحون الأرض أو بحارة قدامى قضوا أكثر سني عمرهم يجوبون البحار والمحيطات وكان ليذري ينتمي إلى القسم الأخير بالرغم من أنه يشتغل كثيرًا على الأرض كنجار سفن أو عامل في منجم ملح ولكنه كان في قرارة نفسه يشعر أنه ينتمي إلى البحر وكان دائمًا يقول لنفسه "إن موطني هو مع السمك في البحر".

وباختصار فإن كل حياته - ما عدا ثلاث سنوات أو أربع سنوات - كانت في البحر وللبحر الأطلنطي والباسفيكي ولكنه كان بفضل القنال الإنجليزي، كان يود لو أن حياته انتهت في البحر.

ولم يتزوج طوال حياته؛ لأنه لم يجد الرفيق الملائم أو لأنه في قرارة نفسه لم يحس بحاجة إلى الزواج.

# الفصل السادس

كان كل اهتمام ليذري مركزًا في شيئين فقط هما ديروشيت ودرنارد. إن جسم الإنسان يمكن عده في الحقيقة مخبأ تختبئ فيه طبائعنا الحقيقية؛ فهو يحجب نورنا وظلالنا في الوقت نفسه على حين الروح هي الحقيقة الكاملة. أي أننا يمكن أن نقول بتحديد أكثر إن الوجه الإنساني ما هو إلا قناع وأن الإنسان خلف ذلك الستار المصنوع من اللحم والعظم، فإن حقائق غريبة ستكشف لنا عنه والخطأ الشائع، هو أن نحكم على المخبر بالمظهر فقد نجد مثلا أن فتاة صغيرة تشبه في واقعها الطيور.

فتاة تشبه الطيور؟ ما ألذ التشبيه وأشهاه لترسم صورتها في منزلك. ثم سمها بعدئذ "ديروشيت" مخلوق جذاب لا تملك نفسك إلا أن تقول له "صباح الخير يا آنسة عصفور" قد لا ترى جناحيها ولكنك ستسمع تغريدها لا محالة، فهي تغني أحيانًا وعندما تغني تسمو على كل الناس، فهناك أسرار في غنائها وما العذراء إلا ملك متخف.. وعندما تصبح العذراء امرأة يطير من داخلها الملك ليعود بعد فترة ومعه ملك صغير أيضًا عندما تصبح أمًا وتلك التي ستصبح في يوم ما أمًا تظل طفلة فترة طويلة من عمرها إذ تتباطأ فيها روح الطفولة لتجعلها شبيهة بالكروان.

إن آنستنا التي نتحدث عنها والتي قلنا أنها تشبه الطير قد تراها تنتقل من قفص إلى آخر، أي من حجرة إلى أخرى، بخفة وحلاوة تتحدث لتغني، أن تغني لتتحدث جذابة رائعة ساحرة، تحس براحة إذا تحدثت إليها ذلك أن فيها قبسًا من السماء، تدخل السرور إلى قلبك، فهي كالملك ولك أن تحمد الله على أنه ملك مجسم منظور أمام ناظريك بدلًا من أن يكون كبقية الملائكة غير مرئي للأعين.

وهناك شيء مسترع للنظر في سلالة السكان الأصليين في جيورنسي فالنساء وخصوصا الشابات منهن يتميزن بجمال نضر مثل جمال الزهرة، فلهن لطف الساكسون ونضارة النورمانديين، خدودهن موردة وعيونهن زرق، ولقد كان لديروشيت تلك الصفات إلى جانب صفاتها المميزة الأخرى وقد رباها ليذري لتكون نظيفة رقيقة جميلة وهكذا أصبحت فعلا. وكانت ديروشيت تملك أجمل وأرق يدين وقدمين، وتركزت الحلاوة والطيبة في قلبها، وكان قريبها وعائلها الوحيد هو عمها ليذري. وكان كل عملها هو أن تحيا حياتها اليومية المعتادة وكل تسليتها هي بضع أغنيات وموهبتها هي جمالها ومصدر سحرها هو قلبها الطاهر البريء العفيف. ولم تكن تفكر في الزواج قط، ولا خطر لها هذا الخاطر مطلقًا، وكانت تحب دائمًا أن ترصع شعرها بالزهور طوال أيام السنة.

وفي بعض الأمسيات بعد غروب الشمس بقليل عندما تتقابل غيوم السماء مع غيوم البحر وتخف الحركة في ميناء سانت سامبسون يتقدم عبر البحر ناحية الشاطئ وحش هائل له زمجرة مثل الحيوان المفترس وينبعث منه دخان كالبركان يضرب سطح الماء بأيد من الصلب، مخلفًا وراءه ثورة بين الأمواج.

# الفصل السابع

قبل حوادث هذه القصة بأربعين سنة، كانت هناك في ضواحي باريس بالقرب من حائط المدينة منزل ذو سمعة سيئة بعيد عن بقية المنازل. تهيئه عزلته ليكون مسرحًا لارتكاب الآثام. وكان يعيش في ذلك المنزل مع زوجته وطفله.. رجل كان ذات مرة يعمل كاتبًا لدى أحد المحامين، ثم ثبت أنه لص وقدم للمحاكمة ذات مرة واسمه رانتين الكبير.. وكان هناك في ذلك المنزل القديم أحد "الدواليب" القديمة وضع عليه إناءان من الخزف الجميل المحلى بنقوش الأزهار وعلى واحد منهما كتبت عبارة "دليل الأمانة" وعلى الآخر كتبت العبارة "دليل الصداقة".

تربى الطفل في ذلك المنزل، وكان الأب والأم ينتمون إلى المرتبة السفلى من الطبقة المتوسطة، وقد تعلم الطفل مبادئ القراءة والكتابة وكانت الأم الممتقعة اللون دائمًا تساعد الولد على القراءة تمسك الكتاب وتجلسه أمامها لتقرأ له، وأحيانًا كانت تتركه في جلسته هذه وتخرج لتصاحب زوجها في جولة سرقة أو لتباشر عملها الخاص، ثم تعود وهناك كتاب مفتوح أمام الطفل وهو لايزال جالسًا مكانه يموج رأسه بالأحلام.

وذات مرة قبض على الوالد والوالدة متلبسين بإحدى جرائمهما وقضي عليهما بالسجن المؤبد واختفيا من حياة باريس واختفى الصبي أيضًا في الوقت نفسه.

وفي إحدى جولات ليذري الكثيرة حول العالم قابل صبيًا يانعًا غريبًا متشردًا، فأحضره معه إلى جيورنسي لما أنس فيه الرغبة والميل إلى تعلم حرفة البحار، وكان هذا الصبي هو رانتين الصغير الذي كبر وأصبح على أعتاب مرحلة الرجولة.

وكان رانتين ليذري عريض المنكبين وإن كان أطول من ليذري قليلًا وكان كل من يراهما يسيران وينظر إليهما من الخلف يقول "هما أخوان يسيران" وكان رانتين بارعًا في السيف قوي اللكمة، يستطيع أن يطفئ لهب الشمعة بطلقة من مسدس على بعد عشرين خطوة.

وذات يوم، اختفى رانتين - شريك ليذري - فجأة من جيورنسي بعد أن ترك الخزانة فارغة وكان بها خمسون ألفًا من الفرنكات تخص ليذري.

لقد قضى ليذري أربعون عامًا في عمل شاق ادخر خلالها مائة ألف فرنك وها هو ذا رانتين يسرق منه نصف ما ادخر!!

وبالرغم من ذلك، فلم تحطم الصدمة ليذري تمامًا، ولكنه بدأ يفكر في طريقة يستعيد بها ثروته المفقودة فالقلب القوي قد يتحمل خسارة المال، ولكنه لا يتأثر في الروح. وكان الناس

في ذلك الوقت قد بدءوا يتحدثون عن القوارب التجارية وأيقن ليذري أن سفينة بخارية تربط الجزر المحيطة بالساحل الفرنسي قد تكون مشروعًا ناجحًا وهكذا خصص كل جهده وما بقي من ثروته لهذا المشروع.

وبعد ستة أشهر فقط من هرب رانتين فوجئ الناس في سانت سامبسون برؤية سفينة ينبعث منها الدخان كما لو كانت تحترق, وهي تمخر مياه القنال في طريقها إلى الميناء وكانت أول سفينة بخارية يراها الناس في الميناء, والمعتاد أن يقابل الناس كل جديد بشعور الكراهية, وذلك كان شعورهم مع سفينة ليذري الذي أعلن عن قيامها برحلات منتظمة بين جيورنسي وسانت مالو..

وواجهت السفينة معارضة شديدة خاصة من أصحاب القوارب التي كانت تتنقل من الجزيرة إلى الساحل الفرنسي وعدوها عملًا من أعمال الشيطان لأنها كانت تهدد احتكاراتهم حتى بعض رجال الدين عدوها عملًا منكرًا - ولم تنجح السفينة في بادئ الأمر كما كان صاحبها مقدرًا لها, واستمرت المعارضة فترة ليست قصيرة, ولكن الناس بعدئذ كشفوا أن الحيوانات التي تنقل بالسفينة كانت تصل في وقت أسرع وجهد أقل وكانت تباع بثمن أحسن وأن خطورة البحر وركوبه أصبحت بفضل تلك السفينة أقل وأنه أصبح في الإمكان الإبحار في وقت معين والوصول في وقت معين أيضًا كما وجد الناس في جيورنسي أنه أصبح في إمكانهم شحن الأسماك الفائضة عن حاجة الاستهلاك إلى الأسواق الفرنسية وضمنوا سرعة وصولها طازجة حتى الزبد كانت تأخذ طريقها من مزارع جيورنسي إلى المستهلك الذي يعيش على جانبي القنال, في سرعة وسهولة وأمان أكثر مما كان يحدث بالقوارب الشراعية القديمة ودون أن تفقد شيئا من قيمتها أو نكهتها, وباختصار فبفضل سفينة ليذري تمكن الناس من السفر في أمان, وفي رحلات منتظمة, وأن ينموا عملاءهم وتتسع أعمالهم وتزدهر تجارتهم وتجلب الثروة إلى جزيرتهم حتى أن بعض الناس بدءوا يجاهرون بإعجابهم وتأييدهم للسفينة حتى أن سيرلاندويز مسجل الميناء برغم أنه ليس على علاقة شخصية طيبة مع ليذري أصبح من مؤيدي السفينة.

# الفصل الثامن

**وعندما أتم ليذري بناء سفينته أطلق عليها اسم "درناد".**

**كانت ديروشيت ابنة أخيه الذي توفي فتبناها هو منذ أن كانت طفلة وأصبح بالنسبة لها الأب والأم وكل شيء فهو الذي عمدها وهو الذي اختار اسمها.**

**وعندما كان ليذري فقيرًا وديروشيت طفلة لم يكن أحد يهتم بها ولكن عندما أصبح ليذري غنيًا وعندما شبت ديروشيت وأصبحت صبية مليحة أصبح اسم ديروشيت مثيرًا لعواطف مجتمع جيورنسي.**

ومن الخطأ أن نظن أن ليذري كان يعارض في أي زواج لديروشيت, بل على العكس,فقد كان يرغب أن يراها متزوجة ولكن على شرط أن يرتاح قلبه إلى ذلك الزوج, زوج يستطيع أن يعمل الكثير ويترك لها هي القليل لتعمله إذ أنه كان يحب في الرجال الأيدي الخشنة وفي السيدات الأيدي الرقيقة الناعمة ومن أجل أن تحتفظ ديروشيت بجمالها فقد رباها ليذري دائمًا في نعيم, فزودها بمدرس للموسيقى واشترى لها بيانو ومكتبة صغيرة وبعض الإبر لتشتغل وقطعا من الحرير في سلة أنيقة لتشغل نفسها - لو أرادت - بالتطريز. كان كل ما يهمه أن تبدو ديروشيت جميلة جذابة, فرعاها كما يرعى الهاوي زهوره.

كانت ديروشيت تحتل أجمل حجرات المنزل, حجرة ذات نافذتين مفروشة بأثاث مصنوع من خشب الماهوجني وسرير وستائر بيضاء وخضراء يتسع أمامها منظر التل حيث تربض فوقه قلعة قال على حين كان منزل جيليات بودي لارو على الجانب الآخر من التل.

وكانت ديروشيت تحتفظ بالبيانو في حجرتها. تعزف عليه حينما تعزف عليه حينما تغني أغانيها المفضلة وعندما ينبعث صوتها بالليل مغنيًا تحس في نبراته نسائم الفجر الندي وعندما يسمعه الناس يميزونه توا ولو من بين عشرات الأصوات وكثيرًا ما كان المارة يتوقفون منصتين لها عندما كانت تشدو وهي جالسة على آلتها الموسيقية وكانت ديروشيت وهي تنقل من مكان إلى آخر في المنزل تشيع المرح والبهجة هنا وهناك ولم تكن تنادي ليذري بغير كلمة "أبي".

كانت ديروشيت تحب أن تقضي بعض وقتها في الحديقة تنسق زهورها - كما كان ليذري يسمح لها أحيانًا بالقيام ببعض الواجبات المنزلية الخفيفة بالرغم من أنهَ وفر لها خادمين أحدهما يدعى جريس والآخر دوس, وهما من الأسماء التي يكثر التسمية بها في جيورنسي, وكان هذان الخادمان يقومان بكل الأعمال الشاقة.

أما ليذري فكانت حجرته صغيرة, أهم ما يتميز فيها خرائط البحر وبوصلة وغليون يدخن فيه التبغ. كانت هناك أيضًا منضدة وكرسي، والسقف مدهون باللون الأبيض، وكذلك الجدران، وكان على أحد الجدران خريطة كبيرة للقنال الإنجليزي عليها توقيع "ي. فادن" وهو صانع الخرائط في البلاط الإنجليزي، وكانت تلك الخريطة بألوان زرقاء وخضراء وصفراء لتمثل جوانب الطبيعة المختلفة.

وعندما كان ليذري يتمتع بكامل صحته كان يقود هو نفسه درناد, ولم يكن يساعده في ذلك أحد, وعندما تقدمت به السن اضطر إلى البحث عن خلف له ليجلس في قمرة القيادة, وكان ذلك الخلف هو كلوبين وهو رجل قليل الكلام ذو شهرة في معرفة أسرار البحر, وعنده مهارة كبيرة في قيادة السفن وبه كل المميزات المطلوبة لمواجهة الأخطار في عرض البحر. كان جسورًا شجاعًا لا يهاب المخاطر, بل يخرج منها سالماً كما كان سباحًا ماهرًا, تعلم السباحة منذ نعومة أظفاره, وعنده القدرة على السباحة أطول فترة ممكنة.

ولقد كان هناك سبب أساسي رشحه من أجله ليذري ليكون ربانًا لدرناد وهو أنه فطن إلى حقيقة شخصية رانتين وحذر ليذري إياه قائلًا إن رانتين سيسرقك, وقد تحققت نبوءته.

كان ليذري معتادًا أن يلبس ملابس البحار دائمًا حيث كان يشعر براحة نفسية وهو مرتديها وكان يفضل أن يلبس سترة البحار على سترة الربان وكان هذا يسبب بعض الضيق لديروشيت حيث كانت ترغب أن يرى الناس ليذري دائمًا محل الصدارة ولكن للطف أخلاقها لم تكن لتجرؤ على أن تظهر هذا الضيق الذي يخفي ابتسامتها الساحرة.

وكانت دمية السفينة درناد وهو ذلك الجزء الخشبي الذي يرتفع من المقدمة هي حلقة الاتصال بين درناد وديروشيت ولذلك كانت تلك الدمية محبوبة لدى ليذري كثيرًا, وقد طلب من النحات في أثناء صنع السفينة أن تكون مشابهة لوجه ديروشيت. وبرغم أن دقة النحات لم تكن متوفرة فإن خيال ليذري كان يكمل نقص الفن في يدي النحات, وكان كلما نظر إلى تلك الدمية تخيل بنت أخيه جالسة أمامه.

وكان لليذري عيدان كل أسبوع يوم الثلاثاء حيث يرى درناد تبحر, ويوم الجمعة حيث يراقبها وهي تدخل الميناء عائدة من رحلتها المنتظمة, فكان يجلس في حجرته التي تطل على الميناء, يرتكز بذراعه على النافذة مسندًا خده إلى راحته وهو يمتع نظره بمعبودته درناد في سعادة.

# الفصل التاسع

كبرت ديروشيت وتخطت مرحلة الصبا، ومع ذلك لم تتزوج لقد دللها ليذري، والذي يربى على التدليل يكون دائمًا صعب الإرضاء. ولقد كان ليذري نفسه كذلك فيما يتعلق باختيار زوج ديروشيت. أما الزوج الذي يرغبه لديروشيت يجب - في نظره - أن يصلح أيضًا قائدًا لدرناد.. إن الحياة الزوجية مملوءة بتيارات المد والجزر والعواصف والأنواء.. مثل البحر تماما والربان الماهر هو الذي يصلح لكلا العملين، وديروشيت عزيزة على نفسه ودرناد عزيزة لديه. إذن، فالذي يصلح زوجًا لواحدة يجب أن يكون قائدًا للأخرى. وحيث أن كلوبين يقل في السن عن ليذري نفسه خمسة عشر عاما فقط، فهو لا يصلح لأن يكون الرجل المقصود، بل ليظل كما هو قائدًا ومرشدًا لها، وتظل الحاجة قائمة إلى قائد شاب، قائد مستديم ليكون خلفًا حقيقيًا للصانع والباني وصاحب الفكرة في ظهور درناد. إن ليذري يحتاج إلى قائد شاب لسفينته ليكون صهره وزوج بنت أخيه وهذه المصاهرة المزدوجة تدخل السرور والطمأنينة إلى قلب ليذري العجوز، ومثله الأعلى كما يتخيله، رجل قوي مفتول العضلات لوحت سمرة البحر ونسماته لون بشرته فأحالته إلى سمرة برونزية، له مهارة في البحر وفي الحياة.. ذلك هو خيال ليذري وفارس أحلامه.

ولكن هذا لم يكن أيضًا فارس أحلام ديروشيت فقد كانت أخصب من ليذري خيالًا "وأكثر رومانتيكية" وقد اتفق العم وبنت أخيه على أنهما ليسا في عجلة من أمر هذا الزواج!

وعندما استوى عود ديروشيت وبدأ الناس ينظرون إليها كآنسة ناضجة تقدم لها كثير من الخطاب ولكنهم جميعًا لم يحوزوا إعجاب ليذري أو ديروشيت وكان ليذري يتمتم لنفسه دائمًا أنه إذا كانت العروس من ذهب فالخاطب يكون من برونز، وهي حكمة فرنسية قديمة. وما كانا يملكان سوى الانتظار.

ونعود إلى جيليات فنقول:

إنه لم يتحدث مطلقًا إلى ديروشيت وفي المرات القليلة التي رآها فيها كان ذلك يتم عن بعد، كما يرى الإنسان نجمة الصباح.

وفي ذلك الصباح الذي قابلت فيه ديروشيت جيليات ساعة أن كتبت اسمه على الثلج الذي كان يغطي الأرض وكان سنها وقتئذ السادسة عشرة، وقد قال لها ليذري:

- تعالي يا ديروشيت، لقد أصبحت فتاة كبيرة، ويجب أن تقلعي عن "شقاوة الصبايا" الآن.

أما هذه الحادثة فقد رسخت في باطن جيليات منذ ذلك الصباح ولم ينسها قط. كانت علاقة جيليات بالنساء شبه معدومة فهو لم يتحدث مع إحداهن إلا لضرورة قصوى ولم يلعب دور المحب مع واحدة على الإطلاق، وعندما يقابل إحداهن في الطريق فإنه كان يستعد أن يغير اتجاهه أو أن يخفي نفسه خلف شجرة أو سور حتى لا يلتقي بهن وخاصة عجائز النساء.

وفي ذلك الصباح بعد أن قابل ديروشيت وبعد أن قرأ اسمه الذي كتبته على الثلج عاد إلى منزله دون أن يدري فيم خرج؟ وفيم عاد؟ وعندما حل المساء لم يطاوعه النوم بسهولة، وعندما نام حلم كثيرًا على غير عادته.. هل يزرع ورودا في الحديقة؟ من هي السيدة التي ربته؟ هل كانت أمه أو أنها مجرد سيدة رق قلبها له وهو طفل فأنزلته في منزلة ابنها؟ وهل يحبها؟ من هي السيدة التي قابلها منذ أسبوع في الطريق إلى الميناء؟ إنها كانت جميلة، وعيناه لم ترياها من قبل، هل القس يعقوب هيرودسيين راع لكنيسة سانت بيتر أيضًا؟ يا له من رجل طيب؟ ولكن ستترك أبرشية سانت سامبسون خالية لو نقل القس يعقوب إلى هناك.. الليلة السابعة والعشرون من الحساب القمري والمد يبلغ مداه في الساعة الثالثة وعشر دقائق في الصباح وأقصى درجات الجزر تكون في الساعة التاسعة وثلاث وثلاثين دقيقة.. كان يحلم بجزئيات بسيطة تافهة مرت عليه في حياته القريبة والبعيدة وعندما استيقظ في الصباح كانت أول صورة تطرق مخيلته هي صورة ديروشيت، وعندما نام في الليلة التالية حلم بها.

# الفصل العاشر

بدأ جيليات يجد إحساسا بالرضا كلما رأى البرافير، وهو اسم منزل ليذري وديروشيت، وكان يمر به كل يوم سواء مصادفة أو عن عمد.

وكان سور حديقة المنزل منخفضًا يمكن تسلقه بسهولة.. ولكن فكرة تسلقه كانت تثير القشعريرة في جسم جيليات، ولكن كان من السهل عليه - مثل أي شخص يمر بجوار السور - أن يسمع الأصوات تنبعث من حجرات المنزل وهو - وإن لم يكن يتعمد الإنصات - كانت الأصوات نفسها تجد طريقها إلى أذنه سهولة.

سمع ذات مرة صوت الخادمين جويس ودوس وهما يتشاجران، وبما أنهما كانا صوتين ينتميان إلى المنزل.. فقد التقطتهما أذناه واستقرا في داخله كما لو كانا نغمة موسيقية وليسا صوتي مشاجرة بين خادمين.

ومرة أخرى سمع صوتًا، خيل إليه أنه صوت ديروشيت وما أن سمعه حتى أسرع الخطا وخرج من منطقة السمع في لمح البصر ومع ذلك فقد علقت الكلمات التي التقطتها أذناه في ذاكرته وكان يرددها بين الحين والآخر وكانت الكلمات هي "هل يمكن من فضلك إعطائي المكنسة الصغيرة"؟



وبالتدريج أصبح جيليات أكثر شجاعة فقد تعمد أن يتلكأ قليلًا كلما مر بجوار سور الحديقة وذات مرة، كانت ديروشيت تغني وهي تعزف على "البيانو" وكان اللحن حلوًا واستحال لون جيليات إلى صفرة فاقعة ولكنه استجمع كل شجاعته ليستمع.

وأتى الربيع وفي أحد أيامه رأى جيليات مشهدًا رائعًا لن ينساه، ذلك أنه رأى ديروشيت في نافذة غرفتها تسقي "أصيصًا" من الزرع.. ومنذ ذلك اليوم لم يعد جيليات قانعا بالسمع بل إنه أخذ يرقبها في حركاتها وسكناتها ويحفظ عاداتها اليومية حتى يستطيع أن يحظى برؤيتها عن بعد، وكان يبذل كل جهده ألا يراه أحد.

وازدهرت أشجار الورد واخضرت الحديقة بزهور الربيع وازداد جيليات جرأة فأصبح يخفي نفسه ساعات بالقرب من سور الحديقة ليرى ديروشيت وهي تخرج لتسقي الزهور أو لتشذب الأشجار، والرجال يتعودون السم بالتدريج كما يقول المثل.. ومن مخبئه كان يستطيع أن يرى ويسمع ديروشيت وهي تتحدث إلى ليذري وهما جالسان على أريكة وسط الحديقة وكان يراها وحيدة أحيانًا وهي جالسة وسط الحديقة.

كانت تمر عليه - وهو في المكان الذي اختاره لنفسه مخبأ يراقب منه ديروشيت - امرأة عجوز ممن تجمع الخرق البالية وكانت تراه كل يوم تقريبًا ولكنه لم يعلم ما إذا كانت قد ربطت بين وجوده شاخصًا إلى الحديقة أو إلى نوافذ المنزل وبين احتمال وجود امرأة خلف تلك النوافذ.. هل تستعيد ذاكرتها بعض ذكريات الشباب عندما كانت تحب وتحب، لا يدري، ولكن ذات مرة ابتسمت في وجهه وقالت "إن الدفء على الأبواب" ولم يفهم ماذا تقصده المرأة بتلك الجملة.

ومضى الربيع وأقبل الصيف ولم يزل جيليات.. كما اعتاد - في مراقبة ديروشيت وانتهاز أية فرصة تسنح للتطلع إليها وكأنما قد تعودت الطيور وجوده فلم تعد تنزعج منه، وكان يجلس يفكر ترى لماذا كتبت اسمه على الثلج؟ ما هو الدافع الذي دفعها إلى ذلك؟ لقد سمع من أمه مرارًا أن النساء قد يقعن في حب الرجال أحيانًا، هو يتذكر ذلك جيدًا وكان يقول لنفسه:

- إذن فديروشيت قد وقعت في حبي.

وينتابه شعور حزين ثم يقول لنفسه أيضًا:

- إنها تفكر فيّ كذلك، وهذا حسن.

ويتذكر أن ديروشيت غنية وهو فقير، ويتذكر السفينة درناد ويغرق في تفكير عميق.

وذات مساء وعندما حان وقت نوم ديروشيت اقتربت من نافذة غرفتها لتغلق النافذة، وطرق سمعها صوت لحن آت من بعيد، وربما كان من الجانب الآخر للتل، يعزف على آلة موسيقية لحنها المفضل،فاستمعت إليه قليلًا، ثم هزت رأسها وأغلقت النافذة، ومنذ تلك الليلة وهي تسمع النغمة نفسها بالليل وخاصة عندما تكون الظلمة حالكة.

ولم تكن ديروشيت تستسيغ هذا العزف.

# الفصل الحادي عشر

مرت أربع سنوات..

واقتربت ديروشيت من عامها الواحد والعشرين ولم تكن قد تزوجت بعد..

وقال أحد الكتاب ذات مرة:

- إن الفكرة المسيطرة تكون كالمثقاب الحلزوني، كلما مر عليها عام ازدادت عمقًا، وإذا حاولت أن تنتزعها في العام الأول فكأنك تنزع إحدى شعيرات الرأس من الجذر، وفي العام الثاني كأنك تمزق الجلد، وفي العام الثالث كأنك تكسر العظم، وفي العام الرابع كأنك تنتزع جزءًا من المخ نفسه.

وقد وصل جيليات إلى هذه الدرجة الرابعة، ومع أنه لم يتحدث مع ديروشيت حتى الآن فقد عاش بجوارها بخياله، وهذا يكفي.

وقد حدث ذات مرة عندما كان جيليات في سانت سامبسون أن رأى ديروشيت واقفة على باب المنزل تحادث ليذري وتجرأ واقترب منها وخيل إليه أنها ابتسمت عندما رأته.

وكانت ديروشيت لاتزال تسمع العزف الليلي وسمعه ليذري أيضًا وبدأ يحس أنه موجه إلى ديروشيت ولم تكن تعجبه هذه الطريقة في الحب، وأخذ ليذري يسأل عمن يكون العازف، ثم عرف أخيرًا أنه جيليات، وبدا عليه الغضب وقال بصوت مسموع:

- إنك تضيع وقتك أيها الشاب فمن الواضح أنك تحب ديروشيت، ولكن من الواضح أيضًا أن من يريد ديروشيت يجب عليه أن يتقدم إليّ شخصيًا ولا يلجأ إلى لحن يعزفه.

وقد حدث حينئذ حدث مهم في جيورنسي ذلك أن القس يعقوب هيردو قد عين راعيًا لأبرشية ونشستر، ومسجلًا لميناء سانت بيتر، وأن عليه أن يغادر سانت سامبسون إلى سانت بيتر حالما يصل بديله إلى الجزيرة، وكان هذا البديل شابًا من أصل نورماندي واسمه السيد كودري. وقد عرفت بعض الحقائق عن المسجل الجديد فهو شاب فقير ولكنه متعلم وله مستقبل، ثم إنه الوارث الوحيد لعمه مسجل سانت أرابس وسيرته - عندما يموت الأخير - ويصبح رجلًا غنيًا.

كان من أتباع المذهب الإنجيلي المتعصب له وكان له رأي في المرأة والزواج، فطالما أحب رجل امرأة فمن حقهما أن يتزوجا ولا يصبح للأب أو الأم عليهما سلطان، والمرأة تتبع زوجها

**أينما كان، بعيدة عن سيطرة الأم وسطوة الأب.**

# الفصل الثاني عشر

في ذلك الوقت كانت أحوال ليذري المالية في تحسن مستمر فقد كانت درناد تدر عليه دخلًا وافرًا، استطاع أن يسدد ديونه، ويوفي ما عليه من التزامات من سانت مالو ويفك الرهن الذي كان موقفًا على منزله، وفي النهاية أصبح مالكًا حقيقيًا وحيدًا لدرناد وكان صافي دخله منها حوالي ألف جنيه إسترليني سنويًا، وكان ذلك يعد ثروة عظيمة بالنسبة له، كما أن درناد نفسها أصبحت ثروة عظيمة بالنسبة للجزيرة كلها، ذلك أنها ساعدت على ازدهار تجارتها. ولكي يستطيع أن ينقل أكبر قدر من الماشية على درناد، فقد استغنى عن أحد قاربيها الاحتياطيين ليخفف حمولتها بقدر المستطاع، وهكذا ترك درناد بقارب احتياطي واحد وإن كان طويلًا متينًا.

وكان الناس ينظرون إلى نجاح ليذري على أنه مجرد حظ لا أكثر، إذ حاول شخص ما في جزيرة أخرى تقليد ليذري في مشروعه ولكنه فشل وتحطمت سفينته بسرعة وخسر من ساهم معه بأمواله، وهمهم الناس قائلين: إنه الحظ، على حين راح ليذري يؤكد أن محرك السفينة الغارقة لم يكن جيد الصنع مثل محرك درناد ولهذا تحطمت بسهولة.

وعندما يحل الشتاء، وخاصة في شهر فبراير تكثر العواصف في المنطقة مما يسبب هياج مياه القنال بدرجة شديدة تجعل الملاحة فيها أمرًا صعبًا خطرًا، كما تكثر الحوادث التي تحدث للسفن والقوارب التي تجازف بالخروج في عرض البحر، حيث تكون الريح خطرًا مهددًا والضباب خطرًا ثانيًا يترقب كل من يجازف بالإبحار.

وصلت السفينة "كاشمير" من انجلترا سالمة بعد رحلة صعبة في ذلك الجو، ودخلت ميناء سانت بيتر مع تباشير الصباح الأولى عندما انطلق المدفع الذي فوق قلعة كورنت معلنًا شروق الشمس. وكان الناس يترقبون وصول "كاشمير"في لهفة حيث أنها كانت ستقل المسجل الجديد لسانت سامبسون.

وبعد وصولها بقليل، سرت بين الناس إشاعة بأنها قد توقفت في عرض البحر في أثناء الليل لتلتقط بحارة إحدى السفن التي تحطمت والذين كانوا يستقلون قاربًا طويلًا.

وفي تلك الليلة نفسها كان جيليات قد خرج بزورقه المعروف ومد شباك الصيد غير بعيد عن الشاطئ، وبينما هو عائد مع بداية ارتفاع المد حوالي الساعة الثانية بعد الظهر كانت الشمس مشرقة، وعند صخرة عالية بالقرب من الساحل المواجه لمنزله رأى شبح رجل جالس على الصخرة واقترب من الصخرة أكثر، وكان المد يرتفع رويدًا رويدًا والأمواج تعلو حول الصخرة حتى أنها قطعت على ذلك الجالس فوقها طريق العودة.

أخذ جيليات يشير إلى الرجل بيديه ولكن الأخير كان على ما يبدو غير منتبه إلى اقتراب جيليات ولذلك لم تجد الإشارات صدى لديه.

واقترب منه جيليات أكثر، في دهشة فقد وجد الرجل نائما وهو جالس على الصخرة، كان الرجل يلبس رداء أسود، وقال جيليات لنفسه يبدو أنه قس. واقترب منه أكثر ودقق النظر في وجه الشاب ولم يكن الوجه مألوفًا لديه، كان الرجل غريبًا عن المدينة. اقترب جيليات من الصخرة، وركن بزورقه بجوارها ووقف واستطاع أن يلمس قدمي ذلك الرجل بيديه وهزه كي يوقظه من تلك الإغفاء المهلكة وصاح فيه قائلًا:

- هاي. ماذا تفعل في ذلك المكان؟

واستيقظ الرجل وغمغم في هدوء:

- كنت أتأمل.

واستطرد قائلًا بعد أن تيقظ تمامًا:

- لقد وصلت إلى هذه المنطقة توًا، قضينا الليل في السفينة في عرض البحر، إن المنظر ليبدو رائعًا، كنت متعبًا ولذلك فقد غفوت.

وقال جيليات:

- عشر دقائق أخرى، وكان المد سيغرقك.

- آها..

- اقفز إلى زورقي!

وفي لحظة قفز الرجل إلى الزورق وفي دقائق أخرى كان الزورق يدخل المرسى الخاص بجيليات..

كان الرجل يلبس رداء أسود ذا "بنيقة" بيضاء وقبعة مستديرة وشعره أملس.

ربط جيليات الزورق في الحلقة المثبتة على المرسى كي يمنعه من الانزلاق إلى عرض البحر وأعان الرجل الغريب على الصعود، وقف الرجلان بعضهما أمام بعضَ لحظات صامتين، وكان الغريب أول من كسر هذا الصمت قائلًا:

- لقد أنقذت حياتي.

**وأجاب جيليات:**

**- ربما.**

**- إني مدين لك بحياتي.**

**- لا يهم.**

**- هل أنت تتبع هذه الأبرشية؟**

- وأجاب جيليات:

- لا.

- إذا، أي أبرشية تتبع يا سيدي؟

وأشار جيليات بإصبعه إلى السماء قائلًا:

- إني أتبع تلك التي فوقنا.

وانحنى له الرجل الغريب وتركه لينصرف، ولكنه ما كاد يخطو بضع خطوات، حتى توقف ثم عاد إلى جيليات، ثم أدخل يده إلى جيب "سترته" وأخرج منه كتابًا سلمه إلى جيليات قائلًا:

- اسمح لي أن أقدم لك هذا.

وتناول جيليات الكتاب، وتبين أنه انجيل، وانصرف الغريب متجهًا ناحية سانت سامبسون وتابعه ببصره حتى اختفى، ثم مالبث أن نسي كل شيء عن الموضوع، واتجه تفكيره ناحية ديروشيت وكأنه في حلم طويل لم يوقظه منه إلا صوت رجل يناديه:

- إيه يا جيليات!

وتعرف جيليات على صاحب الصوت ورد عليه مجيبًا:

- ماذا في الأمر يا سيد لاندويز؟

وكان المنادي فعلًا هو لاندويز راكبًا عربته الصغيرة التي يجرها حصان واحد، كان يمر بجوار منزل جيليات، على بعد مائة خطوة منه، وكان يبدو أنه على عجل.

- هناك أنباء غريبة يا جيليات.

- أين؟

- في البراهير. في منزل ليذري.

- ما هي تلك الأنباء؟

- لا يمكنني أن احكيها لك ونحن على هذا البعد.

وارتعش قلب جيليات وهو يتساءل:

- هل ستتزوج ديروشيت؟

- لا. ولكن من المستحسن أن تبحث عن زوج.

- ماذا تعني؟

- اذهب أنت نفسك إلى هناك وسترى وستسمع.

وضرب لاندويز حصانه بسوطه, فاندفع مسرعًا ينهب الطريق.

# الفصل الثالث عشر

**كان كلوبين من الأشخاص الذين لا يضيعون وقتهم قط, كان قصير القامة, عريض المنكبين, قويًا مثل الثور, أكسبت حياة البحر لون بشرته سمرة مشربة بصفرة مثل لون الشمع. كانت ذاكرته مثل الكتاب الذي لا ينسى شيئا, ونظرته الثابتة تأسر من يتحدث إليه وإنسان عينيه يفهم بسرعة شخصية محدثة.** كان باختصار, قليل الكلام, متئد السلوك جرئ التصرف.

كانت سمعته لا تجارى في المهارة في البحر, والتغلب على المصاعب, كما أن سمعته كانت لا تجارى أيضًا في التمسك بالفضائل. فالذي كان يحاول أن يثير الشك في كلوبين إنما كان يثير الشك حول نفسه لشدة ثقة الناس بنزاهته. وكان كلوبين على علاقة وطيدة بمسيو "ريوشيث" الذي يشتغل في استبدال النقود, والذي دكانه بجوار الحداد المتخصص في إصلاح البنادق في سانت مالو. وكان الناس يسمعون مسيو ريوشيت يقول في كثير من الأحيان "إني أستطيع أن اترك دكاني في رعاية كلوبين وأنا في غاية الاطمئنان وبدون أي تردد".

وكان كلوبين قد ماتت زوجته, وكانت مثله تمامًا تتصف بالأمانة وحميد الخصال. كانت سمعتها مثل الثلج الأبيض أو مثل بياض البجعة, وكذلك كان كلوبين. حدث مرة دخلا محلًا للطعام في سانت سرفان وقال للبائع لقد تناولت فطوري هنا مرة منذ ثلاث سنوات وحدث خطأ في الحساب وهأنذا أرد إليك ثلاثين مليمًا أخطأت فيها. كان في يوم الثلاثاء من كل أسبوع يقود درناد من جيورنسي إلى سانت مالو فيمكث هناك يومين إلى أن تفرغ السفينة حمولتها القديمة وتشحن الحمولة الجديدة. ثم تعود قافلة إلى جيورنسي مرة ثانية يوم الجمعة في الصباح.

وكانت هناك في سانت مالو حانة صغيرة اسمها "أوبرج جين" وكان كلوبين معتادًا أن يقيم في تلك الحانة معظم الفترة التي يقضيها في سانت مالو, وكان رجال الجمارك وحرس السواحل في سانت مالو يقضون اوقات فراغهم ويتناولون طعامهم في الحانة نفسها على موائد منفصلة وكذلك كان بحارة وقادة الزوارق من البواخر التي ترسو في سانت مالو يتجمعون في هذه الحانة وإن كانوا يجلسون على موائد منفصلة عن تلك التي يجلس عليها رجال الجمارك وحراس السواحل. وكان كلوبين محبوبًا من كل فريق وكان يجلس أحيانًا على مائدة فريق وأحيانًا على مائدة فريق آخر. وكانت الخدمة ممتازة لكل الموائد وخاصة المشروبات المحلية التي كان يقبل عليها البحارة الأجانب بنهم شديد وكان هناك الكثير من موضوعات الحديث الذي يدور بين الجالسين الذين كان معظمهم يتحدث بصوت مرتفع أما رجال الجمارك فكانوا يتميزون بالحديث المنخفض الذي لا تكاد يسمعه الآخرون.

وكان يتزعم مائدة قادة السفن ربان عجوز لإحدى السفن الكبيرة وكان يدعى جرتريز كابوروه. وقد ساعدته خبرته بالبحر على أن يكون ذا دراية كافية بأحوال "الطقس" فكان يتنبأ بهذه الأحوال لليوم التالي، ويعلم متى ستهب العاصفة، ومتى سيرتفع المد، ومتى سيهدأ الجو، ومتى ستنقشع السحب وباختصار فقد كان مثل أبيب الأمواج والعواصف والسحب، وكان المحيط هو المريض الذي يعالجه، يجوبه ليفحصه ويقف على دقائقه.

ولم تكن موضوعات الحديث مشتركة دائمًا بين رجال البحر ورجال الجمارك، ولكن في يوم من أيام فبراير حدث أن التقت أحاديث كل الموجودين في الحانة حول موضوع واحد هو الكابتن زويلا، الذي حضر من شيلي ويستعد للرجوع إليها مرة ثانية. وكان كابتن زويلا نصف شيلي ونصف كولومبي، شارك بنصيب كبير في حرب التحرير منتميًا أحيانًا إلى جانب بوليفار وأحيانًا أخرى إلى جانب ماريللو، حسبما تتفق مصالحه، وقد جنى ثروة طائلة بممالأة الطرفين، وكان يقوم برحلات مختلفة إلى فرنسا ناقلًا الكثير من اللاجئين والهاربين والمفلسين، ولم يكن الأمر بالنسبة له مهما طالما كانوا يدفعون إليه ثمن رحلتهم. وكانت طريقة زويلا في نقل هذه الشراذم في منتهى البساطة؛ إذ كان من يريد أن يركب السفينة يقف في مكان منعزل من الشاطئ وقبل تحرك السفينة بقليل يرسل إليه زويلا قاربًا صغيرًا ليأتي به وبسرعة إلى ظهر السفينة. وفي رحلته الأخيرة قيل أنه ساعد أحد الخارجين على القانون وعلى الهرب وأن البوليس أصبح يراقبه لهذا السبب.

وكانت فرنسا في عصر الإصلاح الذي أعقب الثورة تموج بمختلف الفئات التي تبغي الفرار أو الهجرة منها فخلال ثماني السنوات التي أعقبت عودة البوربون إلى الحكم كان الدمار شاملًا في الميادين الصناعية والتجارية والمالية وكان الناس يحسون أن الأرض تهتز تحت أقدامهم وكثر عدد الذين أعلنوا إفلاسهم كما كثر عدد الذين يبغون مغادرة فرنسا. وكان نقل أو تهريب هؤلاء الناس من المهن المريحة في ذلك الوقت.

فالذي يرغب في الهجرة إلى انجلترا كان يلجأ إلى المهربين والذي يرغب في الهجرة إلى أمريكا كان لا يلجأ إلا إلى "ربابنة" السفن أمثال كابتن زويلا.

وكان كلوبين يقابل المهربين في الشارع فلا يجد بأسًا من تحيتهم أو التحدث معهم باللغة الإنجليزية أو أن يتعرف إلى "ربابنة" السفن الأخرى الذين يتطرق الشك إلى سمعتهم ولا يرى بأسًا من ذلك البتة طالما كان مطمئنًا إلى نفسه وإلى نظرة الناس إليه على أنه رجل الفضيلة الأمثل. مهما صدر منه من تصرف، فقد كان واثقًا أن الناس ستحسن تأويله. وكان هذا يزيده ثقة

وطمأنينة.

وفي ذلك اليوم عندما اقتربت درناد من ميناء سانت مالو، رأى كلوبين سفينة زويلا راسية، وعلم أنها على وشك الإبحار بعد حوالي عشرة أيام.

ومن خلال نظارته المكبرة رأى - بين الصخور قريبًا من الشاطئ في منطقة منعزلة - شخصين واقفين يتحدثان أحدهما كابتن زويلا نفسه أما الثاني.. حسنا، لقد بدا أن كلوبين قد عرفه أيضًا.

وفي مساء ذلك اليوم توجه كلوبين إلى حانوت حداد البنادق وقال لصاحبه:

- أتعرف ما هو المسدس؟

ورد الحداد قائلا:

- نعم فهو سلاح أمريكي.

وقاطعه كلوبين قائلا:

- إنه سلاح يمكن أن يحمله الإنسان إذا أراد أن يجادل أحدًا.. أريد منك واحدًا ذا ست طلقات.

# الفصل الرابع عشر

أرسى كلوبين درناد كالمعتاد في ميناء سانت مالو وافرغ شحنتها وأعاد شحن البضائع والمسافرين الذين سيرحلون معه, ثم قفل عائدًا إلى جيورنسي كالمعتاد يوم الجمعة.

وفي ذلك اليوم عندما خرجت السفينة إلى عرض البحر - واستقرت في خط سيرها واطمأن قلب كلوبين إلى سلامة الرحلة ترك كلوبين مكان القيادة وتوجه إلى "قمرته" وأغلق على نفسه الباب وأخرج حقيبة صغيرة وضع في أحد جوانبها بضعة أقراص من البسكويت, وبضع علب من الطعام المحفوظ وبضعة أرطال من ألواح الشيكولاتة وبوصلة ومنظارًا مكبرًا وربط يد الحقيبة بحبل طويل بحيث يمكنه أن يثبتها فوق كتفه وعلى ظهره لو أراد.

وعندما وصل كلوبين إلى جيورنسي رجع وتوجه إلى فورتفال ومعه الحقيبة وسلم مصنوع من الحبال ثم عاد بدونها.

وكانت عمليات التهريب في تلك الأيام من الأعمال الشائعة عبر القنال الخاصة وخاصة على الشاطئ الإنجليزي حيث كان التهريب منتشرًا مع الأعمال التجارية المشروعة, وحيث كانت عمليات التهريب سببًا في ثراء الكثيرين ممن يظن لهم من التجار الشرفاء. وكانت عمليات التهريب تتم في سرية تامة وهي الصفة التي كان يجب أن يتحلى بها كل من يشترك في المهنة - ولم يكن أحد يجرؤ على الوشاية بآخرين أو أن يكشف عن أسماء الناس المحترمين والذين يساعدون المهربين في أعمالهم نظير نسبة معلومة من صفقاتهم, حتى أن القاضي "آكاد" حكم على أحد المهربين بالسجن سنة عندما رفض الإدلاء بأسماء عملائه أو شركائه, بالرغم من أن القاضي نفسه كان أحد شركاء المهرب ولكن هذا التمسك بمبدأ عدم إفشاء الأسرار دفع المهرب إلى قبول الحكم بنفس راضية.

وكان من أشهر المهربين في تلك المنطقة اثنان عرف أحدهما باسم بلاسكو وعرف الثاني باسم بلاسكونيو.

# الفصل الخامس عشر

في يوم السبت الذي قضاه كلوبين في فورتفال, وقع حادث غريب لم يعرف إلا بعد وقت طويل من تاريخ حدوثه. فقد حدث في مساء ذلك السبت أن كان ثلاثة من الصبية يتسلقون التل عند بليموث عائدين إلى القرية من شاطئ البحر. كان الصبية يتلهون بنزع عشاش الطيور من فوق الشجر ولما داهمهم الليل قفلوا راجعين وكان الليل كثيف الظلام والسحب القائمة تغلف السماء والساعة تدق معلنة الثالثة مساء, تنبعث دقاتها من فوق برج القرية الذي كان يشبه في الظلام رجلًا ضخمًا وعلى رأسه قبعة مخروطية. أما لماذا تأخر الصبية في العودة إلى تلك الساعة فتفسيره أنهم نسوا أنفسهم وتوغلوا قليلًا في البحر بقارب صغير ثم فاجأهم المد, وخشوا العاقبة فتسلقوا صخرة عالية, اضطروا إلى أن يلوذوا بها حتى ينحسر المد قليلًا. والأمهات كالمعتاد ينتظرن عودة أولادهن المتأخرين وهن في قمة القلق فإذا ما عاد الأولاد سالمين عبرت الأمهات عن فرحتهن الدفينة بالعودة في صورة غضب ظاهري منهم, وضربن هؤلاء الأولاد الأشقياء ضربًا مبرحًا.. ولذا فقد كان هؤلاء الصبية الثلاثة في عجلة من أمرهم وهم في طريق العودة خائفين مما ينتظرهم خلف أبواب منازلهم.

اثنان منهم فقط كان يداخلهما هذا الشعور, أما الثالث فلا خوف لديه, ذلك لأنه كان بلا أم ولا أب فرنسي الأصل ولذا فقد شعر في تلك اللحظة بمزية اليتم. ذلك أنه لم يكن يخشى أي حساب عن عودته المتأخرة مثل زميليه الآخرين. عندما انحدر الصبية على سفح التل ولامست أرجلهم الأرض المسطحة, رأوا أمامهم منزلًا منعزلًا كان يشاع بين الناس أنه مسكون بالأشباح, لذا فسرعان ما ازداد خوف الأولاد وازدادت سرعة دقات قلوبهم وهو شعور طبيعي يداخل كل من يمر على ذلك المنزل بالليل, فما بالك والمارون الآن صبية صغار؟ داخلت الأولاد رغبة في الجري ليبتعدوا عن المكان بقدر المستطاع داخلتهم في الوقت نفسه رغبة في التوقف مدفوعين بحب الاستطلاع, وانتصرت الرغبة الأخيرة.

وتوقف الصبية ونظروا إلى المبنى القريب الذي ارتفع في تلك المنطقة المنعزلة والذي بدأ كأنه كتلة من الغموض في وسط ذلك الظلام, وكان الإحساس الأول لدى الصبية هو أن يجروا, والإحساس الثاني هو أن يتقدموا منه. إنهم لم يسبق لهم أن تقدموا منه هكذا مثل تلك الليلة وشجعهم الصبي الفرنسي على مزيد من الاقتراب, كما شجعهم على التِغلب على بعض خوفهم. ومن الحقائق المعروفة أن الفرنسيين قليلوا الخوف من المجهول, ثم أن الخوف في وجود زميلين ينقلب إلى شجاعة. كان مجموع عمر الصبية الثلاث لا يتعدى الثلاثين عاما.. ولكنهم كانوا رواذا بطبيعتهم يخرجون ليصطادوا الطيور, أليس ذلك مما يغرس في النفس حب معرفة

المجهول؟ الصيد عملية مثيرة، وكذا كشف المجهول عملية مثيرة، والبحث عن الطيور يقود إلى البحث عن الأشباح.

وكان الصبي الذي وقف منهم موقف الدافع والمشجع يستحق فعلًا ثقتهم، كان من ذلك النوع من الأولاد الذين يشعرونك برجولة مبكرة، كان ينام في إحدى حظائر الخيول كل ليلة يشتغل ليعيش، ويصارع الدنيا كلها ليأكل، ولم يكن يهمه من يكون مالك شجرة التفاح هذه أو تلك أو صاحب هذا الحقل المزروع بالخضروات، إنما كان كل ما يهمه أن يحصل على حاجته، ليطعم نفسه، بثمن أو بدون ثمن، فكان لذلك ماهرًا في تسلق الأسوار والأشجار. ثم أنه كان يشتغل صبي نجار يعمل في إصلاح القوارب على الساحل. كان في العاشرة، وهو يتيم، غريب، لا أحد يعرف من يكون أبوه أو أمه، ولا أحد يهمه أن يعرف ذلك، ولكنه في داخله كان طيب القلب مستعدًا لأن يعطي آخر مليم معه لشحاذ وهو أحوج من الشحاذ نفسه، كان يتقاضى شلنًا في اليوم نظير عمله، فإذا ما أحسن بخمول أعطى نفسه أجازة يخرج فيها ليصطاد الطيور. لذلك كان الصبي الفرنسي الغريب.

اقترب الصبية من المنزل أكثر، وداخلت قلوبهم أحاسيس الرهبة من وحدة المكان وعزلته، وساعدت الطبيعة في إخفاء نوع من السكون على المكان، فالريح سكنت وهدير البحر الذي كان منبعثًا من بعد خفت، وعم المكان سكون شامل غامض مثير. وتقدم الصبية ببطء يتقدمهم الصبي الفرنسي وكلما اقتربوا أكثر، أحسوا بأنفاسهم تتوقف، كما لو كانوا يقتربون من وحش كاسر. وازداد اقترابهم، حتى وصلوا إلى صخرة قائمة تشرف على البيت عن قرب، فاعتلوها، وواجهتهم جدران المنزل من ناحية الجنوب ولكنها كانت صماء، وليس بها نوافذ، إذ كانت النوافذ على الجانب الآخر ولكنهم لم ييئسوا، بل انحدروا إلى الجانب الآخر حيث توجد بعض النوافذ الخلفية، وما أن اقتربوا حتى رأوا نافذتين تبعث منهما الأضواء وفي لحظة أطفئت الأضواء وساد الظلام. واستبد بهم الخوف أكثر، ولكن فضولهم غلب خوفهم فظلوا في أماكنهم برهة وجيزة، ثم فجأة أضيئت الأنوار في النافذتين مرة أخرى، ثم اختفت ثانية، وكلما أضاءت الأنوار ظهرت ملامح الجدار بعض الشيء، واستطاع الصبي الفرنسي أن يلمح شبحين كبيرين يتسلقان الحائط مستعينين بسلم مصنوع من الحبال وأحس الصبية بخوف شديد ولكن وجود الصبي الفرنسي بينهم شجعهم بعض الشيء، ثم رأوا أحد الشبحين يقبل إلى النافذة وفي أعقابه وصل الآخر وفي لحظة كانا قد اختفيا داخل المنزل، ثم ساد الظلام مرة أخرى.

وبدأ الصبية يسمعون بعض الهمس يشبه الكلام. وعندما تكون الطبيعة ساكنة لا ريح ولا صوت موج، ولا خفيف شجر، فإن الإنسان يستطيع أن يسمع دبيب النملة على الأرض وهكذا

كان الحال في تلك الليلة.

ازدادت رغبة الصبي الفرنسي في الدخول إلى المنزل وبالرغم من أن هذه الفكرة كانت مذهلة ومرعبة بالنسبة لرفيقيه فإن جسارته شجعتهم وهكذا اقتربوا من باب المنزل فولجوه بسهولة وتقدموا بمنتهى الحذر وكانوا كلما تقدموا خطوة دق قلبهم بعنف وهمس أحد الصبية:

- يبدو أنهم أشباح.

فلكزه الصبي الفرنسي قائلًا:

- لا تكن غبيا، فلا يوجد شيء اسمه أشباح في هذا العالم. ولم يكن الوقت مناسبًا للجدال، بل إنهم تقدموا بكل حذر خلف مرشدهم الفرنسي الجسور، وكانت الأصوات المنبعثة من الداخل تزداد وضوحًا شيئًا فشيئًا، وازداد توغل الصبية في المنزل ثم رأوا شعاعًا من الضوء ينبعث من داخل إحدى الحجرات، وكان الكلام المنبعث من الموجودين فيها قد بدا في منتهى الوضوح واستطاع الصبية أن يسمعوا الحوار التالي:

- هل فهمت هذا؟

- نعم بكل وضوح.

- وهل توافق عليه؟

- أوافق.

- إن الرجل المنتظر هنا يستطيع أن يصاحب بلاسكوتيو معه إلى انجلترا.

- هل يدفع؟

- نعم.

- بلاسكوتيو سوف يأخذه في زورقه.

- دون أن يحاول معرفة البلد الذي أتى منه؟

- نحن لا يهمنا هذا.

- حتى ولا مجرد السؤال عن اسمه؟

- نحن لا نسأل عن أسماء، بل نعد النقود.

- حسن. سوف ينتظر الرجل هنا في هذا المنزل.

- يجب أن يكون معه بعض المؤونة.

- سوف نمده بها.

- كيف؟

- من هذه الحقيبة التي أحضرتها.

- حسن جدا.

- هل يمكنني أن أترك الحقيبة هنا؟

نعم. فالمهربون ليسوا لصوصًا.

- ومتى ستبحرون؟

- غدا صباحًا. إذا كان رجلك جاهزا فليأت معنا.

هو لم يجهز نفسه بعد.

- هذا شأنه.

- كم يومًا سيضطر إلى البقاء هنا؟

- اثنين أو ثلاثة أو أربعة. يمكن أكثر.. يمكن أقل.

- هل أنت متأكد أن بلاسكوتيو سوف يحضر؟

- نعم.

- هنا في بلفيمونت؟

- نعم.

- متى؟

- الأسبوع القادم.

- أي يوم؟

- الجمعة أو السبت أو الأحد.

- **ألن يعوقه أي "طقس" أو عاصفة؟**

- **إنه لا يخشى أي شيء.**

- **إذًا فسوف يأتي.**

- **أنا أحضر مرة وهو يحضر الأخرى.**

- **فهمت.**

- عد .. من السبت الماضي... أسبوع من الآن ولن تمضي خمسة أيام ألا يكون بلاسكوتيو هنا؟

- من أين يأتي بلاسكوتيو؟

- من بلباو.

- حسنا.

- وأين سوف يذهب؟

- إلى بورتلاند.

- حسنا.

- أو إلى توربای.

- حسنًا جدًا.

- يستطيع رجلك أن يهدأ بالا.

- ألن يخونه بلاسكوتيو؟

- الجبناء فقط هم الخونة, ونحن رجال شجاعة.

- هل يوجد أحد هنا يسمع حديثنا؟

من الصعب أن يرانا أو يسمعنا أحد. فخوف الناس من ذلك المكان يمنعهم من الاقتراب منه.

- أنا أعرف.

- من يجرؤ على الاقتراب منها هنا؟

- حقا.

- إلى جانب ذلك لو سمع أحد ما نقول فلن يفهم ماذا يعني هذا القول.

- حسنا. يجب أن أنصرف الآن.

- مع السلامة.

- قل لي: افرض أن الراكب أراد من بلاسكوتيو أن ينقله إلى مكان آخر غير بورتلاند أو توروباي.

- دعه يحضر مزيدًا من الذهب معه.

- هل سيسهر بلاسكوتيو على راحته؟

- إن بلاسكوتيو يفعل ما يأمره به الذهب.

- هل تستغرق الرحلة كثيرًا إلى توروباي؟

- هذا يتوقف على سرعة الرياح.

- ثماني ساعات مثلا.

- هل سيطيع بلاسكوتيو الراكب؟

- إذا أطاع البحر بلاسكوتيو.

- سيحسن الراكب تقدير أجره.

- الذهب هو الذهب، والبحر هو البحر.

- هذا حقيقي.

- الإنسان يفعل ما يستطيع بذهنه، والسماء تفعل ما يحلو لها برياحها.

- سيصل الرجل الذي سيرافق بلاسكوتيو إلى هنا يوم الجمعة.

- حسنا.

- في أي ساعة يصل بلاسكوتيو؟

- في الليل، نحن نصل في الليل، ونبحر في الليل، فنحن لنا زوجة اسمها البحر وأخت اسمها الليل.

- حسنا. كل شيء متفق عليه، عمت مساء.

- مع السلامة، ألا ترغب في جرعة من البرالدي قبل أن تذهب؟

- أشكرك.

- إنه نوع ممتاز.

- أنا أثق بكلمتك.

- اسمي "كلمة شرف".

- مع السلامة.

كان من الواضح أن هذا الحوار لا يمكن أن يدور إلا بين الشياطين أنفسهم، ولم يعد الصبية في حاجة إلى مزيد من الاستماع، وكان الفرنسي اسبقهم إلى الإسراع بالخروج من ذلك المكان.

وفي يوم الثلاثاء التالي وصل كلوبين إلى سانت مالو مع السفينة درناد وكانت سفينة زويلا لاتزال في الميناء.

ومن بين دخان غليونه سأل كلوبين صاحب الحان:

- متى تبحر سفينة زويلا؟

- - يوم الخميس بعد الغد.

وفي ذلك المساء، تناول كلوبين عشاءه على مائدة رجال الجمارك وخرج بعد العشاء مباشرة على غير ما اعتاد.

ولم يعد إلى "قمرته" في السفينة إلا بعد أن دقت الساعة معلنة العاشرة تماما.

# الفصل السادس عشر

تغيب كلوبين عن الحانة ليلة الثلاثاء، ويوم الأربعاء مساء أيضًا لم يظهر في الحانة، وفي مساء الأربعاء دلف شخصان غريبان إلى أحد الحواري الضيقة في سانت مالو ووقفا أمام فندق من النوع الوضيع، ثم طرقا الباب، ولم يلبث أن انفتح، فدلفا إلى الداخل مسرعين. وقابلتهما في الداخل امرأة ذات رجل خشبية وقد رسمت على وجهها ابتسامة لم تكن متعودة إياها. وكانت هناك شمعة على إحدى الموائد الخشبية، تقدم من المرأة أحدهما وقال:

- مساء الخير يا سيدتي، لقد أتينا بخصوص ذلك الموضوع.

واتسعت ابتسامة المرأة وغادرت المكان من الباب الخلفي حيث كان يوجد بئر المياه، وبعد دقيقة دخل رجل كان يرتدي "سترة وعلى رأسه قبعة، وكان يبدو عليه أنه قد استيقظ من نومه حالًا كما كان يبدو عليه بعض الدهاء، ثم تقدم من أحد الرجلين وقال:

- هل أنت الحداد؟

- نعم، وهل أنت الرجل القادم من باريس؟

- نعم، ومعروف باسم "ردسكن".

- أرني... البضاعة.

ومد الرجل يده تحت "سترته" وأخرج مسدسًا لم يكن من المألوف رؤيته في أوربا حتى ذلك الوقت، وكان المسدس جديدًا لامعًا، وتناوله الغريبان، وفحصاه وخصوصًا الرجل الذي بدا وكأنه يعرف المكان جيدًا والذي ذكر له الرجل الباريسي أنه الحداد.

وقال الحداد:

- بكم؟

وأجاب الرجل الباريسي:

- لقد أحضرته معي من أمريكا، بعض الناس يحضرون قردة وببغاوات أو بعض الحيوانات المختلفة، ولكني أحضرت هذا، إنه اختراع مفيد.

وسأل الحداد مرة ثانية:

- بكم؟

- إنه مسدس بساقية.

- بكم؟

- تستطيع أن تطلق الطلقة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة وهكذا, سيل من الطلقات.

- الثمن..

- به ست طلقات.

وكأنما نفذ صبر الحداد من هذا النقاش, فقال:

- حسنًا جدًا, أنا أعرف كل هذا, وكم تريد ثمنًا له؟

- ست طلقات.. يعني ثمنه يكون ست قطع ذهبية ماركة لويس.

- ألا تكفي خمس؟

- مستحيل.. كل طلقة بقطعة ذهبية, هذا هو الثمن.

- لا تكن مغاليًا هكذا, لقد عرضت عليك ثمنًا مناسبًا!

- وأنا عرضت عليك سعرًا مناسبًا أيضًا, اختبر السلاح يا سيدي الحداد.

- لقد فحصته.

- إن الطلقة تدخل الماسورة من تلقاء نفسها, إن هذا السلاح أعجوبة.

- أنا أعلم.

- والطلقات صناعة أسبانية.

- لاحظت هذا.

- دعني لأريك كيف يشتغل.

- أنا أعرف كيف يشتغل.

- إنه مصنوع من أنقى أنواع المعادن - لا يسخن وقت الاستعمال أبدًا..

- هل أنت تاجر مسدسات؟

- أنا تاجر كل شيء.

**- إن الطلقات لونها فاتح بعض الشيء.**

**- وهذا هو سر جمالها يا سيدي الحداد.**

**- حسنا، سوف نعطيك خمس قطع ذهبية!**

**- اسمح لي أن أوجه نظرك أني قلت ست قطع.**

**وخفض الحداد من صوته قليلًا وهو يقول:**

- لا تدع هذه الفرصة. تخلص من هذا المسدس. لو رآك أحد حاملًا هذا السلاح لشك فيك وستجلب لنفسك المتاعب.

- أنا أعلم هذا. إن هذا المسدس يناسب سيدًا مثلك أو مثل رفيقك.

- إذن ستأخذ خمس قطع ذهبية.

لا .. بل ست قطع. كل طلقة بقطعة.

- حسنا، سنعطيك ست قطع ذهبية ماركة نابليون.

- بل ماركة لويس، فهي أثقل في الوزن وأكثر في القيمة.

- في هذه الحالة، ننسحب من الشراء.

- حسنا، سأحتفظ به لنفسي.

- كما يحلو لك.

- إني لست مغفلًا حتى أفرط في هذه القطعة النادرة بهذه السهولة.

- يا رجل. خمس قطع ذهبية.. حسنًا، سنعطيك قطعة فضة أخرى زيادة.

- قلت لك ست قطع يا سيدي، وهي كلمة نهائية.

في تلك اللحظة تقدم الرجل الآخر رفيق الحداد وكان لايزال صامتًا طوال تلك المناقشة وقال للحداد:

- هل هو سلاح جيد؟

ورد الحداد قائلا:

- جدا.

وقال الرجل الأول.

- إذًا فلنعطه ست قطع كما يريد.

مرت خمس دقائق بعد ذلك، كان الرجل الباريسي قد أخفى القطع الذهبية الست في جيب مسحور في "سترته" على حين خطا الحداد ورفيقه مغادرين المكان، بعد أن وضع الرجل المسدس في جيب "سترته" بمنتهى الحيطة والحذر.

# الفصل السابع عشر

في صباح اليوم التالي، يوم الخميس، وقعت حادثة مؤلمة على بعد ليس بكثير من سانت مالو بالقرب من نقطة "ديكوليه" وهي مكان يرتفع فيه الحر ويزداد البحر عمقا. في ذلك المكان تمتد سلسلة من الصخور داخل البحر مكونة لسانًا يشبه جسم السفينة ولكي يصل الإنسان إلى قمة تلك الصخور عليه أن يجتاز مشقة كبيرة في القفز من صخرة إلى أخرى هنا وهناك. كان هناك فوق تلك الهضبة رجل واقف يرتدي "سترة" عسكرية وكانت الساعة قد بلغت حوالي الرابعة بعد الظهر وكانت هناك ريح قوية تجتاح البحر، على حين وقف الرجل فوق الهضبة منتصب القامة، وقد أغمض إحدى عينيه ناظرًا بالأخرى خلال منظار مكبر كما لو كان يبحث عن شيء في نهاية الأفق.. على حين المد يعلو والريح تضرب الأمواج بشدة فتحدث صوتًا صاخبًا. وما كان الشيء الذي ركز عليه الرجل الواقف اهتمامه من خلال منظاره المكبر سوى سفينة راسية على بعد من الميناء ويبدو أن قائدها كان على وشك الإبحار ذلك أن "الخطافات" لم تكن مدلاة في قاع البحر ولذا فقد كانت السفينة تروح وتجيء مع اهتزازات الموج. ظل الرجل واقفًا هكذا يرقب الأفق الممتد أمامه بحذر، وكان يبدو من ملابسه أنه أحد حراس السواحل وابتدأ الظلام ينتشر بعض الشيء، ولم يتبين الرجل خلال اهتمامه بمهمته من يقترب منه من خلف الهضبة التي كان يقف عليها، وكان من الواضح أن الشخص الذي يقترب كان مختفيًا في مكان ما بين الصخور منتظرًا تلك اللحظة التي يبدأ فيها الظلام في الانتشار. ولم يكن ذلك الشخص سوى الرجل الذي كان واقفًا يتحدث مع كابتن زويلا والذي رآه كلوبين منذ أيام.

وفجأة بدا على الحارس ازدياد في الاهتمام، فأخرج منديله ليمسح به زجاج نظارته المكبرة ثم يضعها على عينيه مرة أخرى، مركزًا ناظريه على السفينة ورأى قاربًا صغيرًا يتحرك من جانبها وقد بدا - لبعد المسافة بين السفينة والحارس - وكأنه بقعة صغيرة سوداء.

كان القارب محملًا ببعض البحارة - وقد بدا من اتجاه سيره أنه يقصد الشاطئ عند نقطة "ديكوليه" وتتبع الحارس القارب بعينه خلال منظاره المكبر- باذلًا قصارى جهده ألا يفقد أثره وسط البحر.

كل هذا على حين يقترب الرجل الآخر من خلف ظهره بحذر مكورًا يديه استعدادًا للنزال، ولم تكن تفصل بينهما إلا أربع خطوات فقط وبمنتهى الحذر خطا خطوة، ثم ثانية ثم ثالثة، ولم تبق إلا خطوة واحدة تفصله عن الحارس المنهمك في منظاره والذي لم يحس باقترابه منه وبكل ما أوتي من قوة رفع الرجل كلتا يديه ثم أسقطهما بشدة على رأس الحارس في سرعة خاطفة، وكانت الضربة حاسمة حتى أن الحارس لم يستطع أن يطلق أي صيحة، بل هوى من

فوق الهضبة إلى البحر كقطعة من الحجر وأطبق البحر عليه أمواجه.. كالحيوان الذي يفتح فمه ليقضم طعامًا ثم يطبق عليه فمه ليغيب في ظلماته الداخلية.

لم يعد الآن للحارس من أثر إلا منظار مكبر سقط من يده على الهضبة ثم دائرتين أو ثلاثًا انداحت فوق سطح البحر لتعلن عن المستقر الأخير الذي هوى إليه بلا عودة على حين وقف الرجل الآخر ينظر نتيجة فعلته, ولما اطمأن إلى أن الحارس قد اختفى تمامًا علا صوته مغنيا "لقد مات الحارس.. وفقد حياته تماما".

ونظر الرجل مرة ثانية إلى حيث سقط الحارس ولم ير شيئًا ثم ظهرت بقعة داكنة وسط الماء, ثم بقعة أخرى, ثم دائرة كبيرة, إنها بلا شك دماء الحارس الذي يبدو أن رأسه قد ارتطم في أثناء سقوطه بإحدى الصخور فسالت دماؤه.. على حين ارتفع صوت الرجل مغنيًا مرة أخرى قائلًا.. "وقبل أن يموت الرجل بقليل.."

ولكنه لم يتم جملته, إذ سمع خلفه صوتًا قوي النبرات يقول بمنتهى الهدوء:

- أأنت يا رانتين.. طاب يومك. يبدو أنك قد قتلت رجلًا الآن.

ونظر رانتين. وعلى بعد حوالي خمس عشرة قدمًا منه, وقف رجل قصير القامة وفي يده مسدس مصوب نحوه وتمالك رانتين نفسه من المفاجأة وقال:

- طاب يومك يا كلوبين.

وفوجئ الرجل بأن رانتين يعرفه ولم يكن يتوقع ذلك فسأله:

- هل تعرفني!

وأجاب رانيتن:

- أعرفك كما تعرفني.. أنا أعرف أنك كلوبين وأنت تعرف أني رانيتن.

وطرق سمعيهما صوت القارب الذي كان يرقبه الحارس, وهو يقترب تجاههما رويدًا رويدًا. وقال كلوبين في صوت منخفض كأنما يحادث نفسه:

- لقد كانت ضربة معلم يا رانتين.

وأجاب رانيتن ببرود:

- أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك؟

- أوه.. أمر بسيط جدا. لقد مرت عشر سنوات منذ رأيتك آخر مرة ويبدو أن الأمور كانت تسير معك سيرًا حسنًا.. كيف حالك؟

وأجاب رانيتن:

- حسنا.. وكيف حالك أنت؟

- حسن.

وتقدم رانيتن من كلوبين خطوة, وتحركت إصبع كلوبين على الزناد واستطرد مخاطبًا رانيتن:

- رانتين, بيني وبينك مسافة خمس عشرة خطوة, لا تتقدم بعد ذلك أية خطوة.

- حسن جدًا.. قل لي ماذا تريد بعد ذلك؟

- أوه.. لقد أتيت لأتحدث معك قليلًا.

ولم يتحرك رانتين واستطرد كلوبين قائلا:

- لقد قتلت الآن أحد حراس السواحل.

- هأنتذا تعرف.

- نعم ورقمه 619 وهو أب ورب عائلة وعنده خلاف الزوجة خمسة أطفال.

ولم يرد رانتين وواصل كلوبين الحديث:

- مساكين حراس السواحل هؤلاء معظمهم كانوا بحارة.

- دائمًا من يمت يترك خلفه زوجة وعددًا من الأطفال.

- حسنًا.. كم كلفني ذلك المسدس؟

- إنه من نوع جيد..

- كم تظن ثمنه؟

- كثير بلا شك.

- لقد كلفني مائة وأربعة وأربعين فرنكًا.

- هل اشتريته من المحل الذي في شارع كوتانش؟

- إن الحارس لم يصرخ. فاجأته الضربة فسقط.

- سوف تهب بعض الرياح ذلك المساء يا كلوبين.

- لم ير أحد ما حدث سواي.

- ألا تزال تقيم في أوبرج جين كلوبين.

- بلى يا رانتين.

- أتعرف يا كلوبين كيف تعرفت عليك الآن؟ ذلك لأنك عرفتني فقلت لنفسي، وليس هناك واحد في مثل قوة ذاكرة كلوبين.

ثم تقدم خطوة أخرى إلى كلوبين وللمرة الثانية تحرك إصبع كلوبين على الزناد وقال:

- قف حيث أنت يا رانتين.

وقال رانتين بحنق:

- الرجل يصبح كالطفل أمام هذا السلاح.

- وتكلم كلوبين قائلا:

- اسمع يا رانتين أن الموقف هو كما يلي: على بعد ثلثمائة خطوة من جهة اليمين في اتجاه سانت أنوجات حارس سواحل آخر رقم 618 وهو لايزال على قيد الحياة وعلى اليسار تجاه سانت ليونان مركز رجال الجمارك, وهؤلاء يمكنهم الحضور إلى هنا في أقل من خمس دقائق ولا تنس أنهم جميعًا مسلحون ولا تنس أيضًا أن هنا تحت قدميك في أعماق البحر جثة لأحد رجال السواحل.

وبينما هو يتحدث, كانت عينا رانتين مثبتة على المسدس على حين استطرد كلوبين قائلا:

- هل يعجبك هذا المسدس يا رانتين؟ إنه لعبة لطيفة, به ست طلقات وإحدى طلقاته كفيلة بإثارة انتباه الحرس المسلحين فيحضرون توا.

واقترب القارب أكثر وأصبحت ضربات مجاديفه أكثر وضوحًا واستمر كلوبين في الكلام بثبات وإن كان قد خفض صوته بعض الشيء:

إن الرجال الآتين في القارب يا رانتين لو علموا بفعلتك لساعدوا في القبض عليك. أنا أعرف أنك اتفقت مع كابتن زويلا أن تدفع له عشرة آلاف فرنك في مقابل أن ينقلك من هنا, على فكرة

إن مهربي بليموث كافة يتقاضون مبلغًا أقل لو أنك فاوضتهم ولكنهم كانوا سينقلونك إلى انجلترا فقط ولو أنك لم تكن لتخاطر بالذهاب إلى جيورنسي لأن الناس هناك يعرفونك جيدا.. دعنا في موضوعنا الآن. لو أني أطلقت النار لقبض عليك وأنت ستدفع لزويلا عشرة آلاف فرنك لينقلك من هنا، دفعت له النصف وباقي النصف..

إنك يا رانتين استطعت أن تتخفى جيدا. فتلك القبعة، وتلك الملابس غيرت شكلك بعض الشيء.. إن "ببنطلونك جيبين" يا رانتين في أحدها ساعتك، احتفظ بها.

- أشكرك يا كلوبين.

- وفي "الجيب" الآخر علبة صغيرة مصنوعة من الحديد. تفتح وتغلق بزنبرك.. إنها علبة نبغ خاصة بالبحارة.. أخرجها من "جيبك" وأعطني إياها.

- هذه سرقة يا كلوبين.

- تستطيع أن تعترض وتستدعي الحراس.. لو أردت وضاقت عينا رانتين ونظر إلى كلوبين وأخرج العلبة ثم تقدم من كلوبين وهو يقول:

- ها هي ذي يا كلوبين.

ولكن كلوبين حذره قائلا:

- قف مكانك ولا تتقدم. اقذفها. رانتين ماذا تظنني.. إني رجل شريف.

اعتقد يا رانتين أنك مخطئ في تفكيرك. إنك تسمى ما أفعله سرقة على حين أنا أسميه إعادة حق. منذ عشر سنوات غادرت جيورنسي ناهبًا خزانة أحد شركائك وكان فيها خمسة عشر ألف فرنك تخصك وخمسين ألف فرنك تخص ذلك الشريك.. وهذه الخمسون ألفًا من الفرنكات التي تخص ليذري إذا ما حسبنا ربحها المركب في السنوات العشر يصير مجموعها الآن ثمانين ألفًا وستمائة وستة وستين فرنكًا وستة وستين سنتيمًا. لقد توجهت يا رانتين إلى أحد التجار المشتغلين في استبدال النقود واسمه ريوشيت.. لقد أعطيته ستة وسبعين ألف فرنك سويسري وأخذت بدلها ثلاث ورقات "بنكوت" على بنك انجلترا كل ورقة قيمتها ألف جنيه إسترليني، ثم وضعت تلك الأوراق المالية الثلاثة في ذلك الصندوق الحديدي الصغير ووضعته في "جيب بنطلونك" الأيمن وأنا الآن أطالبك بهذه النقود وباسم ليذري سأتوجه غدًا إلى جيورنسي وساردها إليه. لقد وضعت يا رانتين حقائبك على ظهر سفينة زويلا وتريد أن تغادر فرنسا، وعندك أسبابك الوجيهة وأظن أنك تريد الذهاب إلى "اريكوبيا" وها هو ذا القارب يقترب برجال

زويلا لأخذك إلى السفينة، ها هو ذا يقترب، والأمر الآن يتوقف على هل سأدعك تذهب أو أمنعك؟ والآن - ولا كلمة - اقذف إلي بالصندوق.

أخرج رانتين الصندوق في صمت ثم طوحه في الهواء فسقط تحت قدمي كلوبين الذي التقطه بيد على حين ظل مصوبًا المسدس ناحية رانتين باليد الأخرى وفتح العلبة وعد ما بها، ثلاث ورقات قيمتها ثلاثة آلاف جنيه إسترليني وورقة رابعة فئة مائة جنيه. فأخرجها وقال لرانتين بعد أن لفها بأحد الأحجار الصغيرة التي التقطها من تحت قدميه وقذفها ناحية رانتين.

خذ هذه.. فأنا لا آخذ أكثر من المستحق.

ولكن رانتين رمقه بنظرة كلها حقد وكراهية وسخرية وطوح الورقة المالية فئة المائة جنيه بقدمه فسقطت في البحر تمامًا من المكان الذي سقط فيه حارس السواحل قتيل.

واقترب القارب أكثر حتى ليكاد يرى بوضوح الآن وقال كلوبين:

- تستطيع أن تذهب الآن يا رانتين.

ثم استدار بخفة مبتعدًا عن المكان متخطيًا الصخور بكل سرعة ممكنة، ثم وقف متخفيًا في حذر وهو يرقب رانتين في أثناء ركوبه القارب ثم استدار القارب إلى عرض البحر مرة ثانية بعد أن زاد ركابه واحدًا هو رانتين.



وما إن اطمأن رانتين إلى نجاته من كلوبين حتى هم واقفًا في القارب والغضب يملؤه وأخذ يصيح بأعلى صوته:

- اسمع يا كلوبين. أنت رجل شريف ولن يضايقك أن أرسل خطابًا إلى ليذري اخبره بكل ما حدث. هذا إلى جانب أن معنا هنا في القارب بحار من جيورنسي اسمه شتقين "وسوف يعود في الرحلة القادمة ليبلغ ليذري أني قد أعدت إليك باسمه ثلاثة آلاف جنيه إسترليني.

ظل كلوبين واقفًا في مكانه يرقب القارب بالمنظار المكبر الذي سقط من يد حارس السواحل حتى وصل القارب إلى السفينة الرابضة على بعد قليل وأخذت السفينة تستعد للإقلاع.. ولم يطمئن كلوبين إلا عندما رأى بمنظاره السفينة تبتعد شيئًا فشيئًا حتى أصبحت نقطة صغيرة في البحر الذي يغلفه الآن الظلام.

# الفصل الثامن عشر

عاد كلوبين في ساعة متأخرة من الليل على غير ما اعتاد. وكان قد توجه قبل عودته إلى أحد المحال التي تبيع الخمر حيث اشترى زجاجة براندي وضعها داخل "سترته" راغبًا في إخفائها ثم عرج على درناد ليطمئن عليها حيث كان مقدرًا له الإبحار بها في الصباح.

عندما دلف كلوبين إلى الحانة لم يكن "بالصالة" أحد سوى البحار العجوز كابوريه الذي كان جالسًا يعب من إحدى زجاجات النبيذ التي أمامه، وأخذ يقول:

- كيف حالك يا كابتن كلوبين؟

- عمت مساء يا كابتن كابوريه.

- لقد أبحرت سفينة زويلا.

- آه.. لم ألاحظ ذلك.

- لقد رحل زويلا.

- متى كان ذلك؟

- هذا المساء.

- وإلى أين يذهب؟

- إلى الشيطان.

- بلا شك، ولكن أين يوجد الشيطان الآن؟

- في "أريكوبيا".

- ألم تذهب إلى أريكوبيا من قبل يا كابتن كابوريه؟ إني لم أزرها من قبل.

- بالطبع منذ سنوات خلت.

- وإلى أين يستطيع المسافر أن يتوجه من أريكوبيا بعدئذ؟

- إلى أي مكان، ولكن زويلا وسفينته لن يتوجها إلى أي مكان.

- لماذا؟

- لأنه ستوجه مباشرة إلى شيلي.

- إذن. فلن نسمع عن السفينة أية أخبار قبل وصولها.

- لا.. فربما أرسلت رسائل وهي في عرض البحر عن طريق السفن المبحرة إلى أوربا والتي تتقابل عادة في عرض البحر.

- هذا حقيقي.

- ثم إن هناك صندوق بريد المحيط.

- ما هو صندوق بريد المحيط.

- في عرض المحيط على صخرة عالية صندوق حديدي كبير وضعه البحارة الإنجليز منذ سنوات وكل السفن التي تعبر المحيط ترسل زورقًا إلى هذه الصخرة ليفرغ الخطابات التي به والتي تتفق مع خط سيرها أو تضع ما معها من خطابات لتنقله السفن الأخرى.. تقليد تتبعه السفن التي تعبر المحيط لنقل الخطابات وتحرص السفن دائمًا على المرور على تلك الصخرة.

وشرد ذهن كلوبين في زويلا وسفينته وصندوق بريد المحيط ورانتين ولم يتنبه إلى كابوريه وهو يسأل:

- ألن تبحر غدًا؟

ولما لم يجب كرر العجوز السؤال فانتبه كلوبين فجأة وقال:

- بلى.. بلى يا كابتن، غدًا صباحًا.

- لو كنت مكانك ما فعلت، فالطقس ينذر بأنه لن يكون على ما يرام، كل الدلائل تشير بأن البحر لن يكون ملائمًا للإبحار غدًا، ولذلك فأنا لا أنصحك بالإبحار يا كابتن كلوبين، ستكون هناك عاصفة "شبورة" كثيفة ورياح وأمطار.

ستكون "الشبورة" كثيفة جدا.. وهي أخطر ما في الأمر

# الفصل التاسع عشر

في صباح يوم الجمعة وفي الساعة التاسعة بالتحديد أبحرت درناد في طريقها عودتها إلى جيورنسي.

ولم يكن على السفينة سوى القليل جدًا من البضائع، بضعة طرود لمحال ميناء سانت بيتر، وطردين لمستشفى جيورنسي بهما قطن معقم وصابون مطهر، وكان على السفينة أيضًا بعض المواشي - ثيران في الغالب - وستة ركاب غير "الطاقم"، ومن بين الركاب مواطن من جيورنسي واثنان من تجار المواشي من سانت مالو متجهان إلى جيورنسي، وسائح، ورجل أعمال باريسي، وأمريكي. يبدو أنه أحد المبشرين.

ودون كلوبين. كان "طاقم" درناد يتكون من سبعة أشخاص، بحار دفة، وطباخ - يعمل كبحار وقت الحاجة - ونجار، واثنين وقادين، وبحار صاري، وصبي قمرات وكان أحد الوقادين يعمل كمهندس للسفينة في الوقت نفسه وهو زنجي نجا من عذاب الحياة في مزارع قصب السكر في سيرونام واسمه "امبرانكام" وكان أمبرانكام" على دراية بهندسة السفينة وصيانتها بدرجة مدهشة.

وكان البحار يدعى تانجورويل "وهو من جيورنسي ودائم الشرب" وكان ليذري - لهذه العادة السيئة فيه - يود إعفاءه من العمل ولكن كلوبين كان "يتوسط" له دائمًا.

كان تانجورويل - كما قلنا - دائم الشرب، ولذلك فقد كان له في السفينة مخبأ سري يحتفظ فيه بزجاجات الخمر بعيدًا عن الأعين يقوم إليها كلما سنحت الفرصة ليشبع منها نفسه، وكان يظن أن هذا المخبأ غير معروف لأي أحد.

وليلة الإبحار، كان المخبأ خاليًا ولم يكن به أية خمر. وكان تانجورويل يعلم هذا ولكنه كالمعتاد استيقظ في المساء، وذهب إلى حيث كان.. وكانت المفاجأة مذهلة له، إذ أنه وجد هناك زجاجة كاملة مملوءة. ومن نوع جيد أيضًا. وكانت فرحة تانجورويل لا تقدر ولأول مرة عرف أن السماء قد تمطر زجاجات خمر.. وفتحها ليشرب جرعة ثم.. ثالثة.. وأخرى حتى أفرغ كل الزجاجة في جوفه، ثم رمى بالزجاجة على سطح الماء، ونام.

وفي الصباح، في موعد الإبحار، لم يكن يستطيع أن يتمالك نفسه منَ شدة السكر. أما كلوبين، فقد عاد إلى الحانة كما سبق أن قلنا، وكان معتادًا أن يلبس حزامًا من الجلد به كيس يحتفظ فيه بعشرين جنيهًا. أخرج كلوبين الكيس وكان منقوشًا على ظهره اسم كلوبين بمداد أزرق.

ثم وضع داخله العلبة الحديدية الصغيرة ذات الآلاف الثلاثة من الجنيهات، ولف الحزام حول خصره كالمعتاد.

# الفصل العشرون

**كان هناك اثنان من بين الركاب: السائح الباريسي، لم يركبا في حياتهما سفينة بخارية من قبل، ولذا فقد وقفا على السطح يتطلعان بإعجاب إلى الدخان المنبعث من السفينة والزبد الذي يعلو الأمواج عندما تتلاطم "رفاصاتها" وكانا يفحصان السفينة قطعة قطعة سائلين عن فائدة كل منها.**

ابتعدت السفينة رويدًا رويدًا عن سانت مالو التي بدت الآن كنقطة صغيرة ثم ما لبثت أن اختفت تمامًا عن الأنظار.

وكان البحر على غير المعتاد هادئًا، ونحن لو مددنا خطًا مستقيمًا من سانت مالو إلى اكسترا في انجلترا لمر هذا الخط بجيورنسي، ولكن الخط المستقيم ليس الطريق السليم الذي تسلكه السفن في رحلاتها "فالربابنة" يختارون الطريق السليم الذي تقودهم إليه خبرتهم وعملهم.

كانت درناد تتقدم في البحر بكل ثقة وهدوء. وحوالي الساعة الحادية عشرة، كانت السفينة قد ابتعدت تمامًا عن المنطقة بمساعدة ريح خفيفة هبت من ناحية الشمال الغربي، وكان البحارة على ثقة كبيرة بكلوبين ولذا فقد كان أمر توجيه السفينة متروكًا إليه.. وبعد قليل بدا أن هناك انحرافًا بسيطًا في خط السير وبدت السفينة وكأنها تقصد جوسي لا جيورنسي. وفي الساعة الحادية عشرة صحح الكابتن وجهة السفينة وأعادها إلى طريق جيورنسي.

كانت السماء صحوًا والشمس مشرقة وكانت البهجة تشع في نفوس كل من على السفينة، حتى تانجورويل الذي كان يبدو نصف سكران، من اثر ما عبه بالأمس من خمور وأخذ البحارة يؤدون واجبهم المعتاد في هدوء على حين جلس الركاب يتحدثون في أمان مصدره هدوء البحر المترامي أمامهم والذي يحتضن سفينتهم كما تحتضن الأم الرءوم طفلها الصغير.. وفجأة ظهرت في السماء سحابة ضخمة قاتمة اللون وإن كانت ساكنة تنتظر هبة ريح لتحريكها. ومال لون الشمس إلى الاصفرار، تضيء وإن كانت لا تدفئ.

وقال السائح:

- أظن أن الجو سيتغير.

وأجاب الباريسي:

- من المحتمل أن ينتشر الضباب.

**وعلق الأمريكي:**

**- أو المطر..**

**وقال السائح مرة ثانية:**

**- في ايطاليا لا تسقط الأمطار أبدًا على منطقة قولفتا. على حين لا تنقطع عن السقوط فوق منطقة ولمزو.**

**وفي الظهر، دق جرس السفينة معلنًا موعد الطعام، وبعض الركاب نزلوا إلى غرفة الطعام وتناولوا الغداء، على حين ظل البعض فوق ظهر السفينة آكلين شيئًا مما كان معهم.. ولم يتناول كلوبين شيئًا مطلقًا. واقترب الرجل الجيورنسي من الأمريكي الذي سأله:**

- هل عبرت القنال من قبل؟

وأجاب الجيورنسي:

- أنا أقيم في جيورنسي.. وهي في هذه المنطقة

وعلق أحد سكان سانت مالو:

- وأنا أيضًا أقيم في هذه المنطقة:

وقال الأمريكي:

- إن سكان الجزر يكونون معتادين البحر أكثر من سكان المدن الساحلية..

وأجاب رجل سانت مالو:

- هذا حقيقي.

وهكذا استمر النقاش حول الجزر والمدن الساحلية وحول الصخور التي في البحر وخطورتها، وحول أشهر الملاحين المعروفين في تلك الأقاليم.

وفجأة وصلت آذانهم صيحة قوية:

- أنت أيها الرجل مخمور..

# الفصل الحادي والعشرون

ونظر الجميع إلى مصدر الصوت، وكان كلوبين هو الذي يصيح في رجل الدفة. وكان صوته وقسمات وجهه ينمان عن الغضب الشديد. وكان واقفًا يصيح مرددًا. أيها السكيرا على حين وقف تانجورويل أمامه صامتًا مطأطئا. وكان الضباب قد تكاثف حاجبًا نصف الأفق تقريبًا وكان يبدو أنه يزحف من كل ركن في الأفق تقريبًا تدفعه الريح الخفيفة ليكمل انتشاره في الكون المنظور، ورويدًا رويدًا غرق البحر كله في لجة من الضباب الكثيف الذي بدأ زحفه من جهة الشمال الغربي.. وازداد تكاثفه حتى بدا كحائط هائل مرتفع يسد الرؤية أمام السفينة.

أصدر كلوبين أوامره بزيادة الوقود في الباخرة وبالانحراف قليلًا ناحية الشرق وبذا نجحت السفينة في الهروب - إلى حين - من تقدم ستارة الضباب، وحل المساء بسرعة وقال الرجل الجيورنسي:

- أخشى أن الضباب سيكون كثيفا.

وعلق أحد سكان سانت مالو قائلا:

- إنه أردأ أنواع المضايقات من البحر.

وأعلن راكب آخر:

- أراد شيء يفسد علينا رحلتنا.

ومضت دقائق قليلة ودخلت درناد منطقة الضباب، وبدت الشمس خلاله وكأنها سطح القمر. وسرت الرعشة في أجساد الجميع وأصبح من الصعب على الذين في مقدمة السفينة أن يروا الذين في المؤخرة وكأنما انتشرت ستارة قاتمة حجبت الضوء عن السفينة كلها.

وأصبح الانحراف الآن ناحية الشرق عديم القيمة، ولذا فقد أمر كلوبين بتعديل خط سير السفينة إلى جيورنسي مرة ثانية كما أمر بإمداد السفينة بالمزيد من الوقود.

سمع المواطن الجيورنسي أحد البحارة يقول لزميله:

- هذا الصباح والجو ساكن، كنا نسير بنصف سرعة أما الآن وهذا الضباب اللعين مستحكم حولنا، فإننا نسير بسرعة كاملة.

وذهب الجيورنسي إلى كابتن كلوبين وقال له الملحوظة نفسها ورد عليه الكابتن قائلا:

- أنا مضطر إلى هنا، فنحن في سباق مع الزمن، وكل هنا بفضل ذلك السكير اللعين.

وأضاف كلوبين:

- إن الضباب سيتكاثف في أثناء الليل.

وعاد الجيورنسي إلى بقية الركاب وقال:

- إن قائد السفينة رجل مدهش.

مرت السفينة وهي منطلقة بأقصى سرعتها على سفينة أخرى وتعرف قائدها على درناد وتعجب من سرعتها في مثل هذا الضباب ولاحظ أيضًا انحرافها عن مجراها الطبيعي ناحية الغرب.

بلغت الساعة الثانية وأصبحت الرؤية شبه متعذرة من شدة الضباب واختفت الشمس تمامًا ولم يكن في مقدور ركاب السفينة رؤية السماء أو البحر.

خيم السكون على ركاب السفينة وداخلهم شعور المقبل على خطر لا يعرفون من أين يجيئهم أو متى يحل بهم ولم يعد يمر بهم زورق أو يمروا بأي زورق أو سفينة، على عكس المعتاد في خط السير المعروف إذ كان ذلك الخطر معروفًا للكثير من الزوارق والسفن.

وفجأة مزق صوت كلوبين هذا الصمت وهو يصيح:

- كفى أيها الكلب القذر. لقد أوردتنا موارد الهلاك. إنك تستحق السجن الآن أيها السكير.

وأمسك "الدفة" هو نفسه. وبلغت الساعة الثالثة وانقشع بعض الضباب وأصبح في المقدور رؤية البحر، والضباب "عادة" تخف حدته إما لأن الشمس قد بددته، أو لأن هناك ريحًا ستهب وفي الحالة الأولى تقل خطورة الضباب أما في الحالة الثانية فالخطورة تزداد.

وبعد قليل، نظر الجيورنسي خلال منظار مكبر، ثم صاح قائلًا:

- كابتن كلوبين.

ورد الكابتن:

- ماذا؟

- نحن نقترب من صخور هانواي.

ورد الكابتن ببرود:

- أنت مخطئ.

ولكن المواطن الجيورنسي أكد قائلًا:

- أنا متأكد مما أقول.

- مستحيل.

- لقد رأيت الصخرة في أقصى الأفق.

- أين؟

- على امتداد البصر.

ثم صاح في الكابتن قائلًا بعد قليل.

- كابتن.. أوقف السفينة.

- لماذا؟

- أنا متأكد أني رأيت صخرة كبيرة أمامنا. هي بلا شك صخرة هانواي.

- إنك لا ترى غير كتلة من الضباب.

ولكن الرجل صاح في جزع.

- أوقف السفينة بحق السماء.

وأدار كلوبين "الدفة" دورة كاملة.

# الفصل الثاني والعشرون

وسمع صوت شديد..فقد اصطدمت السفينة درناد بالصخرة الكبيرة، صدمة جعلتها تترنح على جانبيها لدرجة أن الركاب وقعوا من أماكنهم من أثر الصدمة.

وصاح الرجل الجيورنسي وهو رافع يديه إلى السماء:

- لقد قلت هذا..

واتت صرخة أخرى من فوق السفينة.

- لقد هلكنا..

وجاء صوت كلوبين قويًا قائلًا:

- لم يهلك أحد..

وظهر أمبرانكام بلونه الأسود قائلًا:

- إن الماء يتسرب إلى داخل السفينة يا كابتن، ستغطي نيران "القزان"بعد قليل.

وكانت لحظة قاسية. كانت الصدمة أشبه بالانتحار، وذلك لأنها أتت مفاجئة لم تكن في حسبان أحد مطلقا. جرت السفينة إلى الصخرة واصطدمت بها وأحدثت بجانبها فجوة تدفق إليها الماء وكسر الصاري الرئيسي وكذلك الدفة، أي أن السفينة أصبحت في حالة يرثى لها.

أفاق تنجورويل من سكرته وأسرع مهرولًا إلى كلوبين وهو يقول:

- الحق يا كابتن. المياه تتدفق بشدة داخل السفينة. عشر دقائق أخرى وتكون المياه قد غطت الماكينة.

وأصاب الذعر كل ركاب السفينة. كانوا يروحون ويجيئون في عصبية وبلا وعي كمن أصابهم مس من الجنون دون أن يدروا ماذا يفعلون. على حين فقد السائح الوعي وخر مغشيًا عليه.

أشار كلوبين إلى الجميع لينصتوا ثم سأل أمبرانكام قائلًا:

- متى ستتوقف الماكينة نهائيًا عن العمل؟

وأجاب أمبرانكام قائلًا:

- بعد خمس أو ست دقائق.

ثم سأل الجيورنسي:

- لقد كنت عند "الدفة" ورأيت الصخور.. على أي جانب منها مالت السفينة؟

وأجاب الجيورنسي:

- على الجانب الأيسر.

فقال كلوبين:

- إذا كان هذا صحيحًا فإنه يكون بيننا وبين الشاطئ ميل واحد.

شخص إليه البحارة والركاب بأبصارهم وأعصابهم المشدودة ينتظرون قرارًا فيما يجب عليهم أن يفعلوه، وكان الموقف عصيبًا فعلًا: إن الدقائق الباقية والتي ستظل فيها ماكينة السفينة قادرة على العمل قليلة، وهي كافية لتبتعد السفينة عن تلك الصخور، لكن ما هناك من عطب أصابها ومياه تدفقت داخلها كفيل بإصدار حكم الإعدام عليها.

وقال كلوبين بمنتهى الهدوء:

- فلننزل القارب الكبير.

وأسرع أمبرانكام وتانجورويل لتنفيذ الأمر، وفي دقائق كان القارب قد استقر على سطح الماء بجوار السفينة المترنحة التي توقف الدخان الآن عن الخروج من مدخنتها دلالة على أن النيران داخلها قد أطفئت تمامًا بفعل المياه المتدفقة، وعلى حسب أوامر كلوبين فقد أسرع الركاب بالنزول إلى القارب وحمل أمبرانكام السائح المغمى عليه ووضعه في القارب، ثم تدافع "طاقم" السفينة أيضًا إلى النزول بسرعة الذي يريد أن ينجو من الموت.

وفي أثناء ذلك، كان كلوبين قد دخل "قمرته"، ثم جمع كل أوراق السفينة، والبوصلة وحجة الملكية، وسلمها إلى تانجورويل قائلًا:

- انزل إلى القارب أنت أيضًا.

وأطاع الجميع، واتخذوا كلهم أماكنهم في القارب الذي كان ينوء بحمله الثقيل حتى بلغ "غاطسه" قرب السطح تقريبًا وأي ثقل أضافي فيه كان سيغرقه بلا شك.

وصاح كلوبين الذي كان لايزال على ظهر السفينة.

- والآن. هيا. أسرعوا ناحية الشاطئ.

**وصاح سائح من القارب:**

**- وأنت يا كابتن.**

**- سأبقى هنا.**

**في حالات الخطر تتجمع العواطف الإنسانية وتتلخص من بعض أنانيتها، ولذا فقد صاح كل من بالقارب في الوقت نفسه:**

- انزل معنا يا كابتن.

ولكن كلوبين قال في إصرار:

- لا.. سأظل بمكاني. عندما تغرق السفينة، يجب أن يغرق الكابتن معها. فهذا هو واجبي ولن يقول أحد أني لم أؤد واجبي حتى النهاية.

ثم صرخ قائلا:

- أطيعوا الأوامر.. هيا اذهبوا..

وارتفعت أيديهم جميعا ناحية كلوبين وصاحوا من قلوبهم:

- المجد للكابتن كلوبين.

وقال الأمريكي:

- يا له من كابتن نبيل.. أنبل من رأيت في حياتي..

ومسح تانجورويل دموعه وهو يقول:

- لو كان عندي الشجاعة لبقيت معه.

وسار القارب مبتعدًا عن السفينة. على حين ظل كلوبين واقفًا على سطحها وحيدًا.

# الفصل الثالث والعشرون

وجد كلوبين نفسه وحيدًا على ظهر السفينة الغارقة وسط الضباب والبحر الموحش بعيدًا عن كل ما هو آدمي أو يمت للآدمي بصلة، والمد يرتفع رويدًا رويدا بجانبه والليل يتقدم بسرعة، عندئذ شعر كلوبين بالرضا فقد نجح.. لقد تحققت آماله.

استحق الآن أن ينال ثمرة جهده وتدبيره.

إنه الآن فوق صخرة "هانواي" على بعد ميل من الشاطئ وفي حزامه خمسة وسبعون ألف فرنك.

لقد تم كل شيء كما رسمه ونفذه.

منذ زمن.. كان يدبر كل شيء. كان يدبر أن يكسب السمعة الطيبة كرجل شريف، ثم يضرب ضربته بتوقيت تام وخطة سريعة محكمة.. تاركًا الناس في دهشة وعجيب.

حاول أن يضرب ضربته أكثر من عشرين مرة، ولكنه أحجم. كان يحجم دائمًا. غيره كثيرون حاولوا. وانتهت حياتهم على المقصلة، وهو على العكس، يريد أن ينهي حياته بثروة، وكانت مقابلته مع رانتين فرصة واتته بعد طول انتظار ولذا فقد دبر خطته ونفذها واستولى من رانتين على المبلغ الكبير، ثم دبر خطة أخرى وهي إيهام الناس بأنه انتهى. مات كبطل.. ثم يستطيع هو أن يهاجر إلى أي مكان، وكان تدبير غرق درناد أحسن وسيلة.

لقد عاش حياته كلها انتظارًا لتلك الساعة. وقد عصفت في داخله روح الشيطان ولمعت عيناه ببريق شيطاني وضحك في هذا الخلاء ضحكة هستيرية. لقد أصبح حرًا في النهاية حرًا لا يعمل لغيره كما أنه أصبح في النهاية أيضًا غنيًا. لقد حلت جميع مشاكله الآن..

كان لايزال الوقت متسعًا أمام كلوبين فالمد كان يرتفع تدريجًا والسفينة كانت محشورة بين الصخور ولم يكن يخشى أن تحركها الأمواج من مكانها وإلى جانب هذا فقد كان يرغب أن ينتظر قليلًا حتى يبتعد القارب.

ولقد كان هذا الرجل مثلًا واضحًا للشيطان الذي يرتدي رداء الملائكة.

مكث ثلاثين عامًا وهو يتظاهر بالفضيلة وهو أبعد ما يكون عنها. فمنذ أن بلغ مبلغ الرجال ارتدى رداء الاحترام.. ولكن في داخله كان يهيم بحب نفسه. عاش كشيطان متخفيًا في جلد آدمي ويا له من شيء عجيب أن يفكر الإنسان في الشر ويتظاهر بالخير أن يكون في الداخل

**حيوانًا مفترسًا وفي الخارج يرتدي لباس البراءة.. حياته كلها متناقضات. لقد كانت حياة كلوبين هي تلك الحياة. كان الشر ينتشر في داخله وإن حرص على اكتساب احترام الناس، كان يبتسم وهو في الواقع يرغب في عض الناس حتى تسيل دماؤهم.**

وكان مصدر هذا إحساسه بأنه مظلوم في هذه الحياة.. لم لم يولد غنيًا مثل بعض الناس؟ كان يكفيه مائة ألف جنيه كمرتب سنوي من أبويه لو كانا من الأغنياء. لم تكن غلطته أنه ولد فقيرًا محرومًا من معظم متع الحياة. لم كان يدفع إلى العمل، أو بمعنى اصح إلى الخداع والخيانة والتدمير؟ لم كان عليه دائمًا أن يسعى إلى كسب احترام الناس وصداقتهم بدلًا من أن يورث هذا الاحترام والصداقة بحكم غناه لو كان غنيًا؟ الناس يكرهون أولئك الذين يدفعونهم إلى الكذب أمامهم.. والآن حانت لحظة انتقام كلوبين لنفسه.

انتقام من من؟

من كل إنسان، من كل شيء.

إن ليذري لم يسيء معاملته قط، ومع ذلك ينتقم من ليذري لأنه ينتقم من كل الناس. إن كل من آمن بفضائله يعد عدوًا له لأنه كان يدفعه إلى تمثيل دور الفضيلة.. لقد كان يعد نفسه أسيرًا لديهم وها هو ذا يحطم جدران سجنه ليبدو على حقيقته، ها هو ذا يهرب من حياتهم ليبدأ حياة جديدة في ظل اعتقادهم، إنه مات ميتة الأبطال، لقد ظهر الآن كلوبين الحقيقي فسلب رانتين ثروته وجلب الدمار إلى ليذري.

عندما أحس كلوبين بنفسه هكذا اجتاحته أحاسيس الراحة التي يحسها الإنسان عندما تسري في أوصاله أحاسيس الحرية وسمح لقدر كبير من الهواء بالدخول إلى رئتيه في سعادة.

لقد خلع عن نفسه ذلك الثوب الذي عرفه به الناس ثوب الفضيلة - كما تخلع الحية الرقطاء جلدها وتغيره بآخر، سوف يظنه الناس ميتًا على حين هو لايزال حيًا بل غنيًا أيضًا، سوف يظنونه غريقًا مع السفينة على حين هو حي.

كان كلوبين قد رسم خطة المستقبل ففي العلبة الحديدية الصغيرة المعلقة على حزامه ثلاث ورقات كل ورقة فئة ألف جنيه إسترليني، وهذا كان كافيًا لإشاعة السرور والاطمئنان في نفسه هناك الكثير من البلدان يساوي فيها هذا المبلغ كثيرًا. فليذهب إلى أي من هذه البلاد.. ليعيش هناك غنيًا يتاجر في البن مثلًا إذا ذهب إلى كوستاريكا أو غيرها. المهم أن أمامه الآن وقتًا طويلًا للتفكير في خطوات المستقبل فقد قطع شوطًا كبيرًا في تنفيذ ما رسمه، والباقي هين، هو الآن فوق صخور "هانواي" على بعد ميل من الشاطئ يستطيع بسهولة أن يسبح فيصل

إلى الشاطئ، ثم يذهب متخفيًا إلى البيت المهجور فيختفي فيه إلى أن يحضر بلاسكوتيو الذي سينقله بعيدًا عن هذه الأرض. كل شيء مرتب ومعمول له ألف حساب، ساعة واحدة يسبحها ويصل إلى الشاطئ والقارب الذي ركبه البحارة لاشك قد ابتعد كثيرًا..

وعندما وصل تفكير كلوبين إلى هذا الحد، انزاحت ظلمة الضباب فجأة ولشد ما كانت المفاجأة، فهو لم يكن فوق صخرة هانواي بل صخور دوفرز المهلكة الرهيبة.

# الفصل الرابع والعشرون

نظر كلوبين إلى الصخور، وقد تجمد من الرعب والفزع..

حقًا لقد كانت تلك الصخور هي الصخور المهلكة، ذات الشهرة المرعبة وقد وقفت في عرض البحر كالوحش الفاغر فاه انتظارًا لابتلاع الفريسة.

لقد أخطأ كلوبين في تقدير الطريق إذ ضلله الضباب، وعندما صاح المواطن الجيورنسي أنه رأى صخور هانواي أعطى دفة السفينة دورة كاملة لترتطم بالصخرة وتتحطم، وما كان يدري أنه يضع نهاية حياته بيديه في تلك اللحظة.

كان على بعد مائتي ياردة مجموعة أخرى من الصخور ذات الأطراف الجرانيتية المدببة، تعلوها جميعًا هضبة كانت تعرف باسم هضبة "الرجل"، وكانت أكثر ارتفاعًا من صخور الدوفرز نفسها بحيث لا تستطيع المياه أن ترتفع إليها.

كان كلوبين يرى صخور الدوفرز كثيرًا في رحلاته عن بعد ولذا فقد كان متأكدًا الآن من مكانه.

يا له من تغيير مفاجئ مذهل، صخور الدوفرز بدلًا من صخرة هانواي! وبدلًا من أن يكون على بعد ميل واحد من الشاطئ يجد نفسه على بعد خمسة أو ستة فراسخ، إن صخور الدوفرز تعني للبحارة الموت المؤكد واليأس القاتل من الوصول إلى الشاطئ.

وسرت القشعريرة إلى جسم كلوبين، لقد وضع نفسه بين فكي الهلاك ولا منقذ له الآن إلا هضبة "الرجل" وكان من المحتمل أن تهب عاصفة في الليل فتقلب القارب المحمل بالبحارة والركاب وعندئذ لا يعلم أحد مطلقًا بما حدث للسفينة أو بوجوده هنا في تلك المنطقة الموحشة في قلب البحر، وكان أقل خطر يهدده هو الموت من البرد ومن الجوع والعطش أيضًا.

ها هي ذي خططه كلها تنهار فوق صخور الدوفرز.. لقد رسم نهايته بيده، وشق هو نفسه طريق هلاكه.. ولا نجاح، لا نصر، بل .. هزيمة، وهلاك ودمار، لقد تحولت جنة أحلامه فجأة إلى جحيم مستعر.

في أثناء هذا بدأت الريح تشتد والضباب ينقشع وظهر البحر والأفق جليًا واضحًا مثلما كان من قبل أن تخفيه ستارة الضباب.

نظر كلوبين إلى البحر مليًا وكان الموقف ملبدًا باليأس ولكن غريزة حب الحياة كانت تدفعه

دائمًا إلى الاستمساك بها، وتمنى أن تمر به إحدى السفن أو أحد الزوارق وتلتقطه من وقفته هذه.

وفعلًا بدا في الأفق شراع سفينة آتية من الشرق ومتجهة ناحية الغرب، وقال كلوبين لنفسه: لقد أنقذت، فبعد أقل من نصف ساعة، سيقترب الزورق من الصخور، ولا شك أنه سينجح في إثارة انتباه ركابه، فيلتقطونه، وما أسهل أن يأمل الإنسان النجاة وهو وسط الخطة، بل قد يزداد طمعًا في آماله، وهكذا فعل كلوبين فإنه لم يطمع فقط أن يلتقطه الزورق، بل طمع في أن يكون الزورق ملكًا لأحد المهربين متجهًا إلى بلينمونت.. بل ربما كان زورق بلاسكوتيو نفسه، وفي هذه الحالة لا تكون حياته فقط هي التي أنقذت، بل ثروته أيضًا وتصبح صخور الدوفرز صاحبة فضل عليه، وفزت عليه مجهود السباحة والاختفاء في المنزل المهجور في انتظار بلاسكوتيو.

ولكن.. هل ينجح، وهو في وقفته هذه، في أن يجذب انتباه ركاب الزورق؟ لا، فمن الأفضل أن يصعد إلى أعلى هضبة "الرجل" فمن هناك يستطيع لو صاح بملء صوته أن يسمع ركابه بكل سهولة، ولكن الهضبة على بعد مائتي ياردة. لا بأس فسيسبحها، فهي مسافة هينة، تحتاج منه إلى مجهود قليل.

ولم يضيع كلوبين دقيقة واحدة..

خلع معظم ملابسه ما عدا الحزام ذا العلبة المعدنية التي وضع فيها كل ثروته، مطمئنًا إلى أنه عندما يلتقطه الزورق لن يعجز بحارته أن يدبروا له بعض الملابس ثم قذف بنفسه في الماء، ولكنه لم يطف، بل غاص إلى الأعماق شاعرًا بشيء يمسك قدمه ويجذبه إلى أسفل..

# الفصل الخامس والعشرون

**بعد محادثة جيليات للاندويس بفترة وجيزة وصل إلى سانت سامبسون.**

كان مضطربًا حائرًا يفكر فيما قاله لاندويز ويخمن فيما يمكن أن يكون قد حدث كان هناك في سانت سامبسون غمغمات مثل طنين النحل, فالناس متجمعون عند أبواب المنازل والنسوة يتحدثن بصوت مرتفع وبعض الرجال يقصون حكاية معينة والآخرون ينصتون في اهتمام وقد تجمعوا حولهم وكانت تصدر منهم بعض التعليقات مثل "يا لحظه التعس" أو "مساكين".

لم يسأل جيليات أي أحد عما حدث, فلم يكن هذا من طبعه كما أنه كان على درجة كبيرة من التوتر لم يستطع معها تركيز تفكيره في أي سؤال, ولذا فقد فضل أن يذهب إلى منزل ليذري مباشرة.

وكان جمع كبير من الناس عند مدخل المنزل وفي داخل بهوه أيضًا, وعندما دخل جيليات مع غيره من الداخلين, وجد لاندويز واقفًا في أحد الأركان هناك. وسأل جيليات؟

- هل علمت ما حدث يا جيليات؟

وأجاب جيليات:

- لا..

- لم أشأ أن أقول لك ما حدث وأنا على ذلك البعد ساعة أن لقيتك عند منزلك فقد كنت سأشبه البومة وهي تعلن الخبر المشئوم.

وقال جيليات في قلق:

- ماذا حدث؟

وأجاب لاندويز:

- لقد تحطمت درنادا!

وفي الحجرة الرئيسية في المنزل, كان يوجد جمع كبير من الناس معظمهم من سكان الجيرة



يرغبون في الوقوف على تفصيل ما حدث بالضبط على حين جلسَت ديروشيت على أحد المقاعد غارقة في دموعها وبجانبها وقف ليذري في ذهول دون أن تصدر عنه كلمة ما, كان منهارًا تمامًا, مثل شخص سلبت منه حياته فدرناد كانت كل شيء بالنسبة له, فإذا ما فقدت, كان

معنى ذلك أنه فقد الحياة ماذا تبقى له إذن؟ .. وماذا يفعل؟

هل يستيقظ كل يوم في الصباح، ثم ينام في المساء، ألن ينتظر عودة درناد من رحلتها أو يرقب إبحارها؟ أسيعيش بقية حياته هكذا دون هدف، يأكل ويشرب، ثم ماذا! لقد توج حياته العملية بمعجزة اسمها درناد والآن تحطمت هذه المعجزة، ثم... هل سيعيش سنوات أخرى عجافا. وما قيمتها؟ وما هي المتعة التي سيجدها فيها بدون درناد؟ إن الرجل في مثل سنه لا يبدأون من جديد.. ثم إن غرق درناد معناه تحطيمه ماديًا أيضًا.. فيا للرجل المسكين!

كانت ديروشيت جالسة على أحد المقاعد والدموع تنزل من عينيها مدرارًا. على حين أمسكت بإحدى يدي ليذري كأنما تستلهمه الصبر أو تعطيه إياه. وكان الأخير قد أسلمها يده في استسلام واستكانة، كان سلبيًا محطمًا منهارًا، في حالات اليأس العظيم والمصيبة حينما تكون أكبر من أن يحتملها الإنسان يصبح هناك حاجز بين عقل الإنسان وجسمه، فإذا هو موجود وغير موجود، موجود بجسمه ولكنه لا يعي من حوله شيئًا، ولا يتعرف على الناس المجتمعون حوله داخلين وخارجين وهو ينظر حوله في شرود.

كانت نظرات ليذري تدل على أنه وصل إلى هذه المرحلة من اليأس فعلا.

وكان الجيران يتهامسون فيما بينهم يتناقلون كل ما يصل إليهم من أنباء السفينة درناد.

إنها تحطمت على صخور الدوفرز في أثناء انتشار الضباب منذ يومين، قبل غروب الشمس بساعة وقد رفض الكابتن النجاة مع البحارة والركاب الذين ركبوا القارب الكبير. وقد فاجأتهم عاصفة أخرى قلبت القارب وألقت بهم في البحر وهم على مقربة من جيورنسي ولحسن حظهم مرت بهم السفينة "كاشمير" التي التقطتهم وأنزلتهم في ميناء سانت بيتر، والمأساة كلها كانت نتيجة لخطأ ارتكبه "تانجورويل" وهو سكران وقد قبض عليه وأودع السجن، أما كلوبين فقد تصرف بشجاعة ونبل رافضًا أن يترك السفينة.

كان هناك على إحدى المناضد في الحجرة بوصلة وبضع خرائط ووثائق وأوراق السفينة وهي الأشياء التي سلمها كلوبين لامبرانكام عند ما هموا بمغادرة السفينة إلى القارب وكانت هذه الأشياء دليلًا جديدًا على شجاعة كلوبين الذي شغل نفسه ساعة الخطر بالاهتمام بأوراق السفينة والعمل على إنقاذها.

كان الكل مجمعين على الإعجاب بكلوبين، حامدين الله على أنه قد أنقذ أخيرا. فبعد وصول السفينة كاشمير وصلت سفينة أخرى اسمها شيلتيل، وأحضرت معها آخر الأنباء، فقد مرت بالطريق الذي كانت درناد ملقاة فيه محطمة على الصخور وكان قائدها في منزل ليذري وحكى

لليذري ما حدث بلهجة صادقة.

ففي الصباح عندما هدأت العاصفة قليلًا وانقشع الضباب وفي أثناء مرور السفينة بالقرب من صخور الدوفرز سمع حوار أحد الثيران، ولقد أثار دهشته أن سمع صوت ثور في هذا المكان الموحش في عرض البحر ولذا فقد اقترب بسفينته ناحية الصوت حتى رأى درناد محطمة بين الصخور. لم يكن عليها إلا ثور واحد هو الذي كان لايزال على قيد الحياة من بين القطيع الذي كان عليها. أما كلوبين فلم يكن موجودًا ولذا فقد ظن قائد شيلتيل أنه ربما أنقذ بإحدى السفن التي تعبر البحر بين سانت مالو والشاطئ الإنجليزي وكان هذا الرأي مقبولًا من الجميع ولذا فقد صدقوه وآمنوا به..

عندما رفض كلوبين الانضمام إلى ركاب القارب كان القارب اثنا عشر راكبًا وكان القارب ينوء بحمله وأي ثقل كان يوضع في القارب قد يغرقه، ولذا فضل كلوبين أن يموت ليحيا الباقون.. موقف نبيل بطولي. أما وقد بقى وحيدًا على السفينة الغارقة فإنه لن يرفض ولا شك أية فرصة أخرى للنجاة..

وهكذا راح الناس يؤكدون نجاة كلوبين بل ينتظرون رجوعه ويرتبون استقباله كما يستقبل الأبطال بأكاليل الغار.

ومن حكاية قائد السفينة كانت هناك حقيقتان واضحتان: إن كلوبين قد أنقذ وإن درناد قد تحطمت.

أما بخصوص درناد فلم يكن هناك بد من التسليم بالمصيبة الفادحة، لقد رأى القائد حطامها. لقد فعلت الصدمة فعلها بجسم السفينة ولكن الماكينة كانت فيما يبدو سليمة، وهكذا أكد القائد وأكد أمبرانكام - مهندس درناد الزنجي - أيضًا إذ قال إنه ترك السفينة وماكينتها على خير حال.

وهكذا تحول مجرى الكلام فبدل عبارات التأسف على غرق السفينة والحسرة على خسارة ليذري تحول الكلام إلى اتجاه كلوبين وماكينة السفينة السليمة وكانوا يتحدثون عن الماكينة كما لو كانوا يتحدثون عن كائن حي واجمعوا على الإشادة بقوتها ودقة صنعها ومتانته.

ولما كانت الماكينة هي أهم وأغلى شيء من السفينة، ولما كان إنقاذ درناد نفسها وهي ملقاة هكذا بين صخور الدوفرز أمرا مستحيلًا إذن فالأمل معقود على إنقاذِ الماكينة نفسها. إن صنع ماكينة جديدة يتطلب أموالًا باهظة جدًا وخبرة نادرة، ذلك لأن بيت الصناعة الذي صنع لليذري ماكينة قد أغلق بعد موت صاحبه، ولو وجد من يصنع ماكينة أخرى فأين لليذري خمسين ألف فرنك وهي قيمة الماكينة ومن يقوم الآن بدفع هذا المبلغ، بعد أن رأوا السفينة التجارية تترنح

في البحر تمامًا مثل السفن الشراعية؟

ولكن إذا كانت ماكينة السفينة الرابضة على صخور الدوفرز مازالت سليمة، فالخسارة قليلة، وإنقاذ الماكينة يعتبر تخفيفًا كبيرًا للخسارة ذاتها.

إنقاذ الماكينة! من السهل التحدث بهذا.. ولكن من يقوم بهذا العمل؟ إن التخطيط شيء وتنفيذ التخطيط شيء آخر، تمامًا كالفرق بين الحلم وتحقيق هذا الحلم.

هل تذهب سفينة وعلى ظهرها "طاقم" كبير ليحاولوا فك الماكينة وإحضارها؟ هذا مستحيل فالفصل فصل عواصف، ومن الصعب على أية سفينة القيام بهذه المهمة الآن. وأحسن ما يمكن عمله هو أن يذهب شخص واحد.. هناك، في هذا المكان الموحش بين السماء والبحر والصخور، هناكِ وسط منطقة الرعب والأهوال والمخاطر ليبقى هناك، أسابيع في وجه الجوع والعطش والبرد وكل أنواء الطبيعة، بعيدًا عن أية ظاهرة طبيعية، أو ظل آدمي أو رفقة مخلوق ما عدا رفقة الموت وشبحه.

ولو فرضنا أن أحدا ذهب إلى هناك فهل يمكنه أن يرفع الماكينة وحده؟ إن المهمة تحتاج إلى مهندس، وأن من يقوم بهذه المهمة يجب أن يكون بطلا، بل أكثر من بطل، يجب أن يكون مجنونًا فالمجنون أحيانًا يدفع إلى الإتيان بالمعجزات.

كانت هذه هي الأفكار المسيطرة على عقول وألسنة الموجودين. قال قائد السفينة شيلتيل:

- مستحيل.. لم يخلق بعد الشخص الذي يستطيع أن ينقذ ماكينة درناد.

وقال امبرانكام:

- إذا لم أذهب أنا، فمعنى ذلك أنه لا يوجد من يستطيع الذهاب وأنا أعجز عن القيام بهذه المهمة الخيالية..

وتحسر قائد شيلتيل وهو يقول:

- آه لو وجد هذا الشخص!

واستدارت ديروشيت وقالت:

- لتزوجته.

وتلت ذلك فترة صمت وجيزة.

واندفع رجل وسط جموع الواقفين والجالسين وقال لديروشيت:

- هل تتزوجين الرجل الذي يقوم بإنقاذ ماكينة السفينة يا آنسة ديروشيت؟

وكان هذا الرجل هو جيليات.

ونظر إليه الجميع.

ولمعت عينا ليذري ببريق غريب، وقال في إصرار:

- اقسم أمام الله.. لو وجد هذا الرجل، فسوف تتزوجه ديروشيت.

# الجزء الثاني

## الفصل الأول

في جنح الليل،خرج جيليات إلى الساحل، ولم يكن على الشاطئ أحد. كان في عجلة، فهو على يقين من أنه في سباق مع الريح والموج والعواصف وكل مظاهر الطبيعة القاسية، وهو على يقين أيضًا من أن السفينة المحطمة قد تجرفها الأمواج العاتية من مكانها على الصخور، ولذا فقد كان ينبغي أن يصل إليها في أقرب وقت مستطاع.

ودبر جيليات خروجه في الليل حتى لا يراه أحد، كالهارب من العدالة الذي يخشى أو يخجل أن تراه الناس. ولذا فقد كان حريصًا أيضًا وهو يدفع زورقه بعيدًا عن الشاطئ متوغلًا في مياه البحرَ ألا يحدث صوتًا مسموعًا بمجدافيه واستعان لذلك بشراعه، ذلك أنه وإن كانت مهمته مستحيلة يشق على كل الناس المخاطر فيها - كان يخشى أن يكون له منافس فيما هو مقدم عليه.

الظلام كثيف حالك والبحر هادئ وزورق جيليات يجري على سطحه في يسر وسرعة بفضل مهارة جيليات ورغبته القوية في الوصول بسرعة، وعبر الأفق الممتد أمام مرمى البصر لاحت ارتفاعات حالكة كأنها شياطين وقفت على سطح الماء تحرسه وتحميه.

ولاحت تباشير الصباح، خيوط بيضاء قليلة بددت ستر الظلام، وشيئًا فشيئًا ازدادت تلك الخيوط كثافة وبياضا، ولاح الأفق من بعيد ووضحت تلك الأشياء السوداء، فإذا هي صخور الدوفرز، والسفينة درناد مستلقية عليها وقد قلبتها الأمواج.

ولاحت له هذه الصخور من بعيد كأنها جدران من الكراهية تعترض طريقه وتبدد أحلامه، ووقف حائلًا بينه وبين ما يريد.

هاتان هما الصخرتان اللتان دفعتا جيليات إلى تلك الرحلة المجهولة.. ولم؟ لو لم تكن ديروشيت قد وعدت بالزواج بمن يجرؤ على تلك المهمة فهل كان هناك من يغامر.. لا يستطيع جيليات أن يقطع بإجابة محددة على هذا السؤال..

يا لهما من صخرتين.. قد تكونان قمتي جبلين تمتد جذورهما في أعماق البحر ويوحي منظرهما بما فيهما من قوة وسحر.

والمعتاد أن يخفي البحر كل جرائمه.. فهو مغرم بالأسرار.. أعماقه صامتة مطبقة على ما

يرتكبه من جرائم، لتبقى سرًا في سكون الأعماق.

كم من شر يقترفه البحر! فهو يبتلع أحيانًا الزورق، ثم يطبق عليه الموج فلا يظهر له أثر ولا يعرف أحد متى ولا أين ولا كيف اختفى!

أحيانًا يزأر ويغضب كالأسد متسلحًا بالعواصف والأنواء والأمواج الصاخبة التي يعلوها الزبد، ثم في دقيقة يستطيع أن يغير شكله إلى .. جميل وديع هادئ، فلا ريح ولا موجة عالية ولا قطرة مطر.

كان جيليات يلبس ثقيلة تناسب برودة الجو، وهي "بنطلون" مصنوع من الصوف، وجوارب صوفية، وحذاء ثقيل و "سترة" ثقيلة وفوق رأسه قبعة من اللباد السميك. في ضوء الصباح المبكر، تعرف جيليات على صخور الدوفرز وأدار دفة زورقه متجهًا ناحيتها وكانت السفينة درناد مقلوبة في وسطها، واقترب جيليات من الصخور بمنتهى الحذر، حتى لا يكون مصير زورقه مثل السفينة درناد.

كان جيليات قد أحضر معه لفافة بها بسكويت وأخرى بها بعض اللحم المقدد وسلة بها بعض السمك المملح المحفوظ وأناء كبيرًا مملوءا بالمياه العذبة الصالحة للشرب. وبعض "بنطلونات وغيارات تحتية" ومعطفا مصنوعًا من جلد الحيوان ليقيه المطر.

وضع جيليات كل هذه الأشياء في الزورق قبل أن يبدأ رحلته مضيفًا إليها رغيفا كبيرًا من الخبز، وكان ذلك كله طبيعيًا بالنسبة لرجل تعود الخروج إلى عرض البحر فترات طويلة. ولم يكن معه من أدوات إلا فأس ومفك ومنشار رفيع ومثقاب وحبل مصنوع من السلك "المجدول".. كما وضع عدة الصيد التي تعود دائمًا أن يأخذها معه كلما خرج إلى عرض البحر آملًا - إذا ما انتهت مهمته بسرعة - أن يمتع نفسه قليلًا بالصيد.

عندما وصل جيليات إلى منطقة الصخور كان تيار الماء قد بلغ أقصاه وبدأ في الانحناء فظهرت قاعدة الصخور منبسطة مثل "المصطبة"، فرسَا بزورقه وأوقفه وسط اثنتين منها حتى يكون في مأمن من اندفاع الموج ثم قفز من الزورق بعد أن خلع حذاءه ليزيد من حركته خفة واندفع يجري فوق الصخور حتى وصل إلى المكان الذي استلقت فيه درناد.

فحص جيليات السفينة بكل دقة وخاصة الماكينة ووجدها سليمة فعلًا، أما "أعطاب" السفينة فكانت بالغة الخطورة، وكانت السماء صافية والرياح ساكنة والجو بديعا.

# الفصل الثاني

تعد صخور الدوفرز من أخطر وأكبر الصخور التي تعترض مجرى القنال الذي يفصل بين فرنسا وانجلترا. وهي مكونة من صخرتين كبيرتين بالإضافة إلى مجموعة من النتوءات الصغيرة التي تظهر على سطح الماء وهناك اختلاف بين الصخرتين، فإن إحداهما أكبر من الأخرى، والصخرة الصغرى تظهر على سطحها نتوءات وفجوات كثيرة مما قد يسهل عملية تسلقها لو استعمل الإنسان مهارته وجازف بحياته، ولكن قمتها كانت مدببة مثل طرف السكين، غير صالحة لإيواء أي شيء ولذلك فلا عجب إذا ألفيناها خالية من عش طير أو مأوى حيوان من الحيوانات المائية التي يمتلئ بها البحر. أما الصخور الكبيرة فإنها على العكس، كان ملمسها ناعما كأنها قطعت من قطعة رخام اسود ولذا فقد كان من الصعب تسلقها وإن كانت قمتها أكثر انبساطًا. وكما قلنا من قبل كانت توجد على بعد يسير هضبة الرجل وهي من قمتها أكثر انبساطًا واتساعًا.

وعندما أرسى جيليات زورقه وأفرغ المؤونة والآلات التي أحضرها معه ووضعها في مكان آمن بعيدًا عن عبث الأمواج، راح يدقق النظر مرة ثانية في السفينة المحطمة وصعد فوقها وجال في داخلها وهاله ما رآه منها من آثار عنف الطبيعة متمثلة في العواصف والأمواج، فقد حطمتها تمامًا.

إن الأمواج لتكون أحيانًا مثل من يهجم على السفينة السائرة في سلام عبر البحر فيستولي عليها ويحطمها ويفرغ كل محتوياتها في مخازنه الخفية في قاع البحر، أو هي كمخالب الحيوان المفترس فإذا ما أراد البحر أو المحيط أن يقتنص فريسة فإنه يهجم عليها بمخالبه ليمزقها إربًا.

ووقعت عينا جيليات على مؤخرة السفينة حيث الدمية الخشبية التي كان ليذري قد نحتها لتشبه وجه ديروشيت، وجالت عينا جيليات في كل ثنية من ثنايا الدمية وسرح ببصره عبر الأفق هناك على الشاطئ حيث تجلس هي الآن.. ترى ماذا تفعل الآن..

هل تنتظر عودة الفارس الذي خرج لينقذ ماكينة السفينة؟ هل تفكر فيه الآن..

ليتها تفعل.. لأنه هو نفسه يفكر فيها كثيرًا..

# الفصل الثالث

كان على جيليات أن يفكر في شيئين مهمين قبل أن يبدأ بالعمل الذي أتى من أجله: أن يجد مكانًا أكثر أمنًا يرسي فيه زورقه، ثم يجد مكانًا آمنًا يستطيع أن يهجع فيه كلما أراد الراحة أو النوم.

وكان المكان الذي أرسى فيه زورقه بين صخرتي الدوفرز - وإن بدا الآن آمنًا لا يضمنه جيليات ساعة ارتفاع المد أو هبوب ريح قوية، ولذا فقد فكر جيليات في هضبة الرجل، وكان هناك مجرى صغير يشبه الخليج داخل الصخرة، وكان الماء فيه هادئًا ويصعب على الموج القوي اختراقه لوقوف جدران الهضبة كالسد المانع. ولذا فقد سحب جيليات الزورق بمنتهى الحذر حتى لا يرتطم بإحدى الصخور المنخفضة الممتدة بين الهضبة وصخور الدوفرز والتي يصعب رؤيتها عند ارتفاع المد، أما الآن والماء منخفض فكان من السهل على جيليات أن يمشي عليها بقدميه متنقلًا بين صخرة وأخرى.

ولم يبق هناك إلا مشكلة مأواه هو، وكان أمامه مكانان يختار أحدهما، أما الزورق نفسه أو فوق الهضبة. أما الزورق فكانت "كابينته" ضيقة ثم أنه خشي أن ينقلب به، وهو نائم لأي سبب وظروف الأمان تحتم عليه أن يعمل حساب أي طارئ، ثم إن الهضبة - وإن كانت صالحة فعلًا لكي ينام عليها، ويستطيع التنقل بينهما وبين صخور الدوفرز بسهولة - لا يطمئن إليها في ذلك وقت ارتفاع المد، فيكون عليه أن يقطع المسافة سابحًا والسباحة في منطقة الصخور والنتوءات.. وهذا عمل خطر غير مأمون العواقب.

إذن فليطرح التفكير في المكانين وليدبر أمر إقامته فوق صخور الدوفرز نفسها، بجوار السفينة المحطمة التي كانت محشورة بين الصخرتين معلقة بين السماء والصخرة، ذلك لأن انحسار الماء في الجزر تركها هكذا في ذلك الموضع الغريب. عاد جيليات إلى الدوفرز بعد حوالي نصف ساعة وشمر عن ساعديه وابتدأ بالعمل في محاولة فك المسامير التي تربط الماكينة بجسم السفينة، وانقضى النهار كله وهو منهمك في هذا العمل.

وحل الليل وآن له أن يجد مكانًا يستريح فيه. وكان من العبث أن يفكر في النوم في السفينة نفسها، فقد كانت معلقة في الهواء وأي ثقل أضافي فيها قد يؤدي إلى سقوطها الذي قد يؤدي إلى صعوبة فك الماكينة، وموقفها هكذا يساعده في عمله كثيرًا. إذن لم يبق أمامه إلا قمتا الصخرتين. أما الصخرة الصغيرة فقد كانت قمتها مدببة لا تصلح لسكن طائر، والصخرة الكبيرة هي التي تصلح فعلًا ولكن كيف الوصول إليها. إن جدارها أملس يصعب تسلقه حتى على فأر

ماهر، وفكر جيليات بسرعة، وأحضر الحبل الطويل "المجدول" الذي كان قد أحضره معه، وتمكن من تسلق الصخرة الصغرى، ثم ربط خطافًا في طرف الحبل وقذفه بكل قوته إلى قمة الصخرة الكبرى، ثم جذبه ولكنه سقط بسهولة وأعاد الكرة أكثر من مرة حيث غرز الخطاف في القمة وربط الطرف الآخر حول وسطه ثم استطاع أن يتسلق الحبل بمشقة فائقة حتى وصل إلى قمة الصخرة..

وهكذا حلت مشكلة الإقامة بالنسبة له.

وهكذا أصبحت قمة الصخرة هي مأواه.

والسفينة درناد محل عمله.

فيا لها من حياة!.

وكان جيليات جائعًا فهو لم يتذوق الزاد منذ أن غادر جيورنسي ولذا فقد هبط مرة أخرى واخرج المؤونة التي كان قد احضرها وتربع بجوارها وتناول عشاءه حتى امتلأ بطنه تماما وشعر براحة تسري في أوصاله، فالمعدة المشبعة مثل الضمير المستريح تمامًا، ولف زاده ثانية وأعاده إلى مكانه ثم قام وتسلق الصخرة حتى وصل إلى قمتها ووضع تحت رأسه حجرًا وغطى نفسه بمعطفه الجلدي التماسًا للدفء واحتماء من المطر إن هطل، ونام على ظهره وعيناه مركزتان على السماء. وبعد دقائق شاهد جمعًا من طيور البحر آتية في سرب كبير وكان تحليق الطيور على ارتفاع غير كبير من قمة الصخرة وكأنما أفزعها وجود هذا الرجل فارتفعت أصواتها.. وأخذت تحوم حول القمة مرات كثيرة وكانت فيما يبدو اعتادت أن تقضي ليلتها فوقها. وها هو ذا شخص غريب احتل مكانها.

وبعد قليل، توجه سرب الطيور ناحية هضبة الرجل ونزل عليها.

ومضت برهة وجيزة من الزمن كان الكل قد غرق في نوم عميق.. الطيور فوق هضبة الرجل وجيليات فوق قمة صخرة الدوفرز الكبيرة..

# الفصل الرابع

نام جيليات نومًا عميقًا.

حقًا، لقد استيقظ أكثر من مرة على أصوات مرتفعة هي بلا شك هدير الأمواج عند ارتفاع المد، ولكنه كان يعاود نومه ثانية وراودته أحلام كثيرة حول جيورنسي ومنزله وديروشيت، كانت تغني ما أجمل صوتها! ما أجمل الحياة معها!!

وما أجمل أن يحلم الإنسان بها.

كان البرد قارسًا ومع ذلك استمر جيليات في نومه ولم يستيقظ إلا عندما غمر ضوء النهار الكون المحيط به فقام وتمطى وألقى نظرة على الأفق وكان الجو هادئًا والسماء صافية مما يوحي بيوم خال من غضب الطبيعة مما ملأ قلب جيليات بالبشر والسرور.

هبط جيليات بالحبل إلى أسفل واتجه إلى حيث وضع السلة التي بها مئونته ولكنها لم تكن في مكانها، لقد حملتها الرياح في أثناء الليل وقذفت بها في البحر.. ولم يتبق له إلا لفافة البسكويت.

وكانت هذه هي النذير الأول بالسوء.

أكل جيليات قطعتين من البسكويت وجلس على حافة الصخرة قليلًا. وبعد دقائق وجد شيئًا طافيًا على سطح الماء، وقد تكالبت عليه طيور البحر تلتقطه ثم تيقن أن هذا الشيء هو السلة المفقودة إذن لقد انتقمت منه الطيور. أخذ مكانها بالليل فأخذت مئونته.

استمر جيليات في عمله هذا مدة أسبوع، يعمل بالنهار دون راحة وينام بالليل.

ما كان أغرب هذا المخلوق وسط ذلك المكان الموحش! ماذا يعمل؟ ولماذا أتى؟ وما هو أمله الذي يريد أن يحققه؟ إن رفع الماكينة ليس عمل رجل واحد إنه يحتاج فرقة كاملة من الرجال، وجيليات لم يكن معه أحد.. كما أنه رفع الماكينة وفصلها عن جسم السفينة كان يحتاج إلى جماعة كبيرة من النجارين والحدادين بكل ما يملكون من عدد وآلات.. وها هو ذا جيليات لا يملك غير فأس ومنشار وأزميل ومفك وكماشة صغيرة آلات لا تصلح إلا لصنع لعبة أطفال صغيرة وليس لفك وقفل ماكينة سفينة بخارية كبيرة.

وخلال ذلك الأسبوع لم يسقط المطر، وكأن الطبيعة أرادت أن تساعد جيليات في عمله دون أن تعطله أو تعوقه وكانت مؤونته من البسكويت - وهو الطعام الوحيد المتبقي له - يتناقص

شيئًا فشيئًا ولهذا فقد كان جد حريص على ألا يملأ بطنه بل كان يتزود بالقدر اليسير فقط.

وكان البرد أحيانًا يشتد وخاصة بالليل، واحتاج جيليات إلى مزيد من الدفء ولم تكن ملابسه التي يرتديها أو الملابس الإضافية التي أحضرها معه كافية لدرء قسوة البرد عنه، ولذا فقد أعمل فكره ليجد طريقة أكثر جدوى، وهداه تفكيره، مدفوعًا بالحاجة التي توحي دائمًا بالاختراع، إلى أن يمسك قطعتين من الحجر الجرانيتي الكثير الانتشار في المنطقة، ويضربهما بعضهما في بعض بقوة فيخرج من بينهما شرر النار، واستطاع أن يجلب بعض الفحم المتبقي في مخزن السفينة المحطمة، ويشعل النار ويجلس إليها دافعًا عن نفسه قسوة البرد ومبعدًا عن المنطقة حلكة الظلام..

وكان كلما خلا إلى نفسه لينام، يفكر ويحلم.. حول الساحل والشاطئ والناس، وديروشيت وحدها من دون الناس، هي التي تستبد بخياله وتسيطر على تفكيره.. هي وحدها ديروشيت.. التي من أجلها خرج إلى رحلة المصير.

# الفصل الخامس

يعتاد الناس زيارة الصخور المجاورة للشاطئ أو القريبة منه أما الصخور التي تقع وسط البحر, فمن غير المألوف أن يطرقها إنسان. إذن ما هو الهدف الذي من أجله يزور إنسان صخرة وسط البحر؟ إنها ليست جزيرة, لا غذاء ولا ماء للشرب, لا شجر لا حيوانات, لا شيء مطلقًا غير حطام سفينة غارقة.

ذات مرة أراد جيليات أن يقوم بجولة استكشاف للمنطقة التي فيها الصخور فدار حولها حتى وصل إلى ذلك الجزء الخلفي منها الذي يواجه القادم من سانت مالو وهو الاتجاه الذي أتت منه السفينة درناد قبل أن يعكس كلوبين اتجاهها لتتحطم فوق الصخور ووجد أن الصخرة الصغيرة بها الكثير من النتوءات والفجوات كما أن قاعدة الصخرة كان بها كهوف كثيرة تمتلئ بالمياه ساعة المد, فإذا ما انحسرت مياه البحر لفظت تلك الكهوف ما بها من ماء مرة ثانية.

واستبدت غريزة الكشف بجيليات ودفعته رغبة قوية أن يتوغل إلى أحد تلك الكهوف... ليرى ما فيها, هل فيها تماسيح... وهل يخاف هو التماسيح؟ لا.. قد يجد فيها ما يؤكل من محارة مثلًا أو سمك, فالجوع بدا له ملازمًا دائمًا.

ودخل الكهف, وكان مظلمًا وإن بدا له بصيص من ضوء في النهاية ولكنه بعد أن سار قليلًا تراجع وعاد من حيث أتى...

إن الإنسان مهما كان شجاعًا لتعتريه أحيانًا لحظات من الخوف.. حتى من لا شيء والذي لا يخاف لا يكون إنسانًا, لأن الخوف إحساس, والإنسان دائمًا نهب لمختلف الأحاسيس.

وقف جيليات على باب الكهف مرة ثانية ووجهه ناحية الماء.. في المكان الذي رمى فيه كلوبين بنفسه في الماء, ولكن أنى لجيليات أن يعرف ذلك؟

ولكن جيليات عاد إلى الكهف مرة أخرى وتوغل فيه, ثم وجد على يمينه ممرًا جانبيًا لم يتردد في أن يدلف إليه, ووجد نفسه في مكان متسع بعض الشيء.. حجرة سطحها صخر وأرضها ماء.. نعم فالأرض بئر لا يعلم عمقها, إن عمقها يمتد أكثر من عمق البحر نفسه, وتراجع خطوات خشية أن يسقط فيها فيبتلعه اليم وشم رائحة العفونة والهواء الرطب والماء الراكد, ووجد نفسه كالميت وسط القبر بعيدًا عن كل مظاهر الحياة..

عاد جيليات ادراجه وباشر عمله المعتاد بكل همة ونشاط وانقضى شهر فبراير واقبل مارس بعده وبدا عطف الجو عليه فلم تهب عاصفة أو يسقط المطر بل ظلت السماء صافية كوجه

ضاحك ينظر إلى جيليات في رفق وحنان.

وكان جيليات ماهرًا في النجارة والحدادة وكل ما يخطر على الباب من حرف, وإذا لم يكن قد أحضر معه الكثير من العدد التي تعينه في عمله فإنه أحضر معه عزيمة قوية, وعقلًا مفكرًا.

والبحر أحيانًا يلقى على الصخر بنفايات كثيرة: قطعة سلك, علب مفتوحة صدئة, قطع من الحديد المتآكل بفعل الماء والصدأ .. بقايا سفن غارقة أو نفايات مما تقذفه السفن في البحر فتمشي مع الموج..

جمع جيليات قدرًا كبيرًا من هذه الأشياء وصنع منها كومة كبيرة, ثم أخرج بعض الفحم المتبقي في حطام السفينة وأوقد نارًا وتحولت صخور الدوفرز إلى دكان حداد يصنع بعض العدد البدائية التي كان في حاجة إليها بمساعدة مطرقة كبيرة وجدها في باطن السفينة, واتخذ من قطعة كبيرة من الصخر الصلد ما يشبه سندان الحداد وكان من بين ما صنع مثقاب كبير. كان يستخدمه في فك المسامير الكبيرة التي تربط الماكينة بأجزاء السفينة الخشبية كما أنه كان يستعمل المنشار الذي احضره معه في نشر الخشب.

# الفصل السادس

**أثر الجهد المتصل وقلة الطعام، على منظر جيليات، حتى لقد بدا منظره رهيبًا.**

كان جيليات مندفعًا إلى العمل بكل ما أوتي من قوة وعزم، ولم يكن أمامه أن يتراجع، والإنسان القوي الإرادة يصعب عليه أن يبدأ عملًا ولا يتمه، وقد عد الناس جميعًا جيليات بطلًا لمجرد خروجه لأداء هذه المهمة، فماذا يقولون لو عاد دون إتمامها.

ديروشيت .. هي التي خرج من أجلها.. هل يعود إليها في موكب من الفشل؟ لا .. فالموت أهون عليه من هذا.. ثم إنه لم يكن من طبعه أن ينكص عن أداء أي عمل.

لو مر أحد على صخور الدوفرز في أثناء ذلك لخيل إليه أن قوة بشرية تسيطر على المنطقة، فهناك كانت تتم معجزة ببطء وصبر وإصرار.. معجزة يقوم بها رجل فرد، أعزل إلا من الإرادة.. والإرادة لو توفرت لفعلت الأعاجيب.

لقد قلنا أن السفينة كانت "محشورة" بين الصخور يلامس سطحها الماء، إذا ارتفع المد، وينحسر عنها ويتركها معلقة في الهواء "محشورة" بين الصخور لو انخفض المد.. لو افترضنا أن جيليات قد نجح في تخليص ماكينة السفينة من جسمها، مع صعوبة هذا العمل وإعجازه.. إذا ما وضعنا أمامنا الإمكانيات الضئيلة التي مع جيليات...

فهل سيترك المحرك يهوي على حافة الصخور ليتحطم؟ لماذا إذن جاء.. أليأخذ حطام ماكينة غير صالح للاستعمال؟

لقد جاء ليحمل الماكينة سليمة هدية منه لديروشيت وعم ديروشيت.

لكن ما أثقل هذه الماكينة. إنها حمل لا يقوى عليه عشرات الرجال، فهل يقوى عليه جيليات وحده.. لا.. ولو كان في قوة رجال الأساطير.. إذن ليعمل عقله. هل يفك الماكينة ويحملها جزءًا جزءًا.. ثم يعاد تركيبها من جديد في جيورنسي؟

مستحيل ذلك أيضًا.. لأنه أولا غير خبير بأجزاء الماكينة، وربما أدت محاولة فكها إلى كسر بعض أجزاء منها نتيجة لجهله بها ثم أنه لا يضمن أن أحدًا في جيورنسي سيستطيع أن يعيد تركيبها.

الحل السليم هو أن ينقل الماكينة كما هي دون فك أو تكسير إلى زورقه أولًا ثم إلى جيورنسي.

لندع التفكير في رحلة العودة قليلًا.. فلم يحن وقتها بعد، والمشكلة الآن هي كيف سينزل الماكينة من السفينة إلى قاعدة الصخرة، ثم إلى الزورق؟

فكر جيليات، وهداه فكره الخلاق إلى صنع رافعة يستطيع أن ينزل بها الماكينة حتى قاعدة الصخور.. فلتكن بدائية، فلتكن غير دقيقة الصنع، فهو هنا وحده، وأي شيء يعمله يعد معجزة. المهم أن تقوم بالعمل...

حصر جيليات احتياجاته اللازمة لصنع هذه الرافعة، سلاسل حديدية، خطاطيف، ثلاثة أعمدة حديدية قوية، بكرة حديدية، مسامير غليظة...

أي أنه يحتاج إلى "ورشة" كاملة مجهزة لتوافيه بهذه الاحتياجات.

"وورشته" البدائية التي صنعها كانت شبه خاوية، لكن لا بأس ليلجأ إلى حطام السفينة فربما وجد ما يصلح.

وفعلًا اقتلع بعض الأسياخ الحديدية التي "تبطن" قاع السفينة وقطع كتلًا من الخشب من السفينة وأوقد نارًا وبالمطرقة وقطعة الجرانيت الكبيرة حمى الأسياخ وقسمها إلى قطع صغيرة ثم حول هذه القطع إلى حلقات ومن هذه الحلقات صنع سلسلة طويلة متينة..

ووجد في السفينة أيضًا حاجزًا حديدًا يلف حول سطحها فاقتلعه وقطع منه ثلاث قطع كل منها حوالي أربعة أمتار لتكون قوائم الرافعة، والخطاطيف صنعها من قطع أخرى من الحديد صهرها وشكلها كما أراد والمسامير هي الأخرى لم يفشل في صنع العديد منها.

قد لا يصدق القارئ هذا.. ولكنه الحقيقة وليتخيل القارئ مدى الجهد المميت والوقت الطويل الذي استغرقه هذا الإنسان العجيب في صنع هذه الأشياء.. حتى أمكنه إتمامها..

لقد وهن جسمه، وغارت عيناه، واستطال شعر رأسه ولحيته، وبرزت عظامه وتمزقت ملابسه، ودميت يداه من ذلك العمل الشاق المتصل، وتورمت قدماه من كثرة المشي على الصخور المدببة، لأن البحر ابتلع إحدى فردتي حذائه وعبث الريح بالأخرى لتلحق بأختها!!

كان يشعر بالبرد والجوع والعطش.

نفذت كمية المياه العذبة التي كانت معه، ونفذت كمية البسكويت أيضًا فكان يمضغ في فمه بعض الأعشاب المائية التي تنبت على جدران الصخور أو بين الشقوق التي هناك..

وبالتدريج، ويومًا بعد يوم خارت قواه وضعف جسمه!

لقد كانت تلك الصخور اللعينة تستهلك حياته!

وبدت ثلاث مشاكل: مشكلة الأكل، مشكلة الشرب، مشكلة الراحة، كان يأكل إذا ما اصطاد سمكة أو عثر على محارة، ويشرب إذا ما ساق إليه الحظ طائرًا يهبط على أي مكان فوق الصخر ليشرب بعض الماء العذب المتبقي من المطر والمتجمع في الشقوق والأخاديد فوق الصخور، فكان جيليات يتبع الطائر بعينه حتى يهبط، ثم يعرف المكان، ويذهب إليه ليشرب بضع قطرات من الماء بعد الطير، وأحيانًا معه، فلم يعد وجود جيليات يفزع طيور المنطقة لأنها اعتادت رؤيته من كثرة وجوده، ولم يحاول جيليات قط أن يمسك أحد تلك الطيور ليأكلها، لأنه كان يتشاءم من أكل الطيور، ولأنها كانت صديقاته من الصغر.

وكأن شكل جيليات الجديد الذي أصبح أقرب إلى الحيوان لا إلى الإنسان قد زاد اطمئنان الطيور إليه فأصبحت لا تخاف منه، وكيف تخاف منه وهو رفيقها في البحر وزميلها في الجوع؟

وهطلت الأمطار.. غزيرة باردة. كانت قطراتها تسقط على جسمه كالمسامير التي تخترق اللحم ولا يعوقها حتى العظم.. واستمر هطولها أسبوعًا كاملًا ليلًا ونهارًا لا تتوقف ولا ترحم هذا المسكين. ولكنه لم يتوقف عن العمل، ولم تعد حياته تهمه، بل كل ما كان يرغب فيه إتمام هذا العمل.. وأصابته حمى خفيفة، ولكنه لم يستسلم لها، ولم تكن ملابسه تجف قط، إما من المطر الذي كان يسقط بعض الوقت ويتوقف بعض الوقت أيضًا، أو من ماء البحر الذي لا ينقطع.. وكان من شدة عطشه أحيانًا يمص أطراف ثيابه المبللة بماء المطر.

وكان يتغلب على البرد بإيقاد النار، ولكن النار في الأماكن الخلوية لا تدفئ إلا جانب الشخص القريب منها، على حين يظل الجانب الآخر يرتعش من البرد.

وأحس بنفسه وكأن قوة خفية تحاربه وتسلبه قوته ومعنوياته شيئًا فشيئًا، قوة لا يعرف كنهها.

تلك الصخور الرابضة في عرض البحر كالحيوان المفترس، فتحت لجيليات فاها مرحبة أول الأمر وها هي تطبق عليه بأنيابها ليسيل دمه في فمها! وذلك الفضاء الممتد أمامه وخلفه ومن حوله في كل مكان يحمل في طياته كل معارضة لإرادة الإنسان!

المد والجزر، حركة المياه الخفية، السر المجهول الذي تكمن تحته عِفاريت البحر فإن قامت سمي مدًا وإن عطشت سمي جزرًا.. تغرق السفن وما تحمله من ناس وبضائع وأنعام.

والرياح المحملة بالرعد والبرق والمطر..

كل شيء ضدك يا جيليات, لا شيء معك أو في صفك.

ولذا فقد شعر بالوحدة أكثر من ذي قبل, وشعر بالإهمال وبالضعف وبالضياع, وبالنسيان, آلاته عاجزة, بطنه خاوية, وحلقه جاف, وجسمه ضعيف وعقله شارد ويداه داميتان, وملابسه ممزقة.

ومع ذلك كان في عينيه بريق عجيب..

# الفصل السابع

أكمل جيليات فصل الماكينة عن جسم السفينة وتركها تكاد تسقط فوق قاعدة الصخور. ثم أسرع وأخذ قاربه الذي كان راسيًا بجوار هضبة الرجل ولم يبق أمامه الآن إلا أخطر وأدق مرحلة في العملية كلها. وهي إنزال الماكينة في الزورق.

حقًا لقد صنع رافعة نصبها وثبت أعمدتها الثلاثة على الصخور بمسامير غليظة صنعها هو نفسه، ثم لف السلسلة التي صنعها أيضًا والتي ربطها في نهاية تجمع أعمدة الرافعة واحكم لفها حول الماكينة وشد طرفها حول البكرة الحديدية وهم بأن يجذب طرف السلسلة بكل عزمه حتى يتم انفصال الماكينة عن جسم السفينة ولكنه آثر أن ينتظر حتى يتم انفصال الماكينة عن جسم السفينة ولكنه آثر أن ينتظر حتى يرتفع ماء المد فيرتفع الزورق فوق سطح الماء وتقصر المسافة بينه وبين حطام السفينة فيسهل عليه العمل.

وفعلًا ارتفع المد وتمكن من إنزال الماكينة في الزورق مستعملًا كل جهده وذكائه حتى لا يحدث ما يفسد عليه هذا المجهود الخارق الذي بذل منذ أن وطئت قدماه منطقة الدوفرز، وكللت مجهودات جيليات بالنجاح، الذي لم يفقد صوابه، ولكنه في اللحظة التي استقرت فيها الماكينة فوق القارب شعر بأن جسمه يرتعش على حين كانت عيناه مركزتين فوق الزورق والماكينة.

إنه لا يصدق عينيه! لقد صنع المعجزة وحده.

كانت الماكينة ثقيلة الوزن. ولذا فقد زاد "غطاس" الزورق نتيجة لهذا الثقل، ولكن الزورق كان معتادًا المشاق.

وبدأ جيليات يستعد للرحيل.

ولكنه خشي أن يقلع أثناء الليل فربما اصطدم في حلكة الظلام بصخرة تبدد كل أحلامه وتهدم كل ما بنى.

وآثر أن ينتظر إلى الصباح على مضض، وكأنما لم يرض لنفسه بأن يظل هكذا بدون عمل انتظارًا لانبلاج الصباح.. وراح يفكر، ترى ماذا تقول ديروشيت لو رأتني هكذا جالسًا بلا عمل"!

وكأنما قد أنكر كل ما لجسمه عليه من حق الراحة.. فهو منذ أتى إلى هذا المكان قد وهب نفسه لهدفه.. ولم تكن تهمه حياته بل المهم أن ينجز ما وعد.

وكان جائعًا فأكل محارة واحدة وكان عطشان فبلل شفتيه بقطرات من الماء من أحد الشقوق، ثم لف جسمه بمعطفه الجلدي وعلى ظهر زورقه نام نومًا عميقًا.

# الفصل الثامن

**الطبيعة طلسم غامض، لا أحد يعرف سر أو مكنونه.**

أحيانًا تكون السماء صافية والجو صحوًا، والموج هادئًا والريح لطيفة، وفي لحظة يتبدل الحال، فإذا السماء ملبدة بالغيوم والسحب، وإذا الجو مكفهر، والموج صاخب والريح عاتية.

ولا أحد يستطيع أن يعرف متى ستبتسم الطبيعة، ولا متى ستقلب ظهر المجن. ولقد أحسنت الطبيعة اختيار التوقيت الملائم لغضبها في هذه المرة. عندما كان الزورق في الخليج الصغير الممتد داخل هضبة الرجل، وعندما كانت الماكينة كامنة داخل حطام السفينة، لم يكن جيليات ليخاف عقبة الطبيعة كثيرًا وكان يمكنه الاحتماء في أحد الكهوف.

صعد جيليات إلى أعلى قمة الصخرة الكبيرة، حيث يتمكن من استطلاع الأفق بدرجة أكثر وضوحًا لعله يستطيع أن يستشف أية تنبؤات، إذ كانت الدلائل الأولى التي أحس بها توحي بعدم الاطمئنان. وجال بنظره في الأفق من جميع النواحي فرأى في الجانب الغربي سحابة قاتمة داكنة مكشرة عن أنيابها صماء ككتلة من الجرانيت وكانت ممتدة من ناحية الجنوب أيضًا، كأنها "فك" كماشة تريد أن تطبق على المنطقة. وكانت تزحف ببطء كالجندي الحذر الذي يزحف على كمين العدو وكان البحر من تحتها هادئًا ساكنًا، كأنه في لحظة ترقب يسبقه الانقباض.

وازدادت سرعة السحابة، فحجبت قرص الشمس الذي كان قد بدأ يرتفع في السماء فتوارى خلفها وبدأت الدنيا تظلم على الرغم من النهار، وفزع جيليات ولكنه وقف ساكنًا وعيناه مع السحاب، وقلبه مع الزورق والماكينة وروحه هناك في جيورنسي مع ديروشيت.

نزل جيليات من فوق الصخرة بسرعة، ثم ذهب إلى المكان الذي كان يحتفظ فيه بما تبقى من ملابسه، فلبس كل ما تبقى ثم غطى نفسه بعد ذلك بالمعطف الجلدي واحكم وضع قبعته الصوفية فوق رأسه استعدادًا للعاصفة، كل هذا على حين تتقدم جيوش السحب القاتمة لتسيطر على السماء كلها الآن.. ولم يتبق لدى جيليات أدنى شك في أنه مقبل على صراع مرير مع عاصفة مفترسة لا ترحم.

ولكن حتى الآن كان الجو ساكنًا ولم تكن هناك نسمة ريح وتركزت كل مصادر الخطر في السحاب.

جلس جيليات فوق قطعة من الصخور ووضع يده على خده يفكر قليلًا ولكن برقًا خاطفًا ظهر في أقصى الأفق واختفى مرة ثانية، وفي اللحظة نفسها ظهرت خطوط مضيئة كالأشباح،

دون أن يصحبها أي صوت. وبعد دقيقة أخرى تكرر الشيء نفسه في أماكن متفرقة. برق دون رعد، وبرق صامت، مخيف يخفي سرًا خلفه، فالقوة أحيانًا تختفي تحت جدران من الصمت وأكثر الكلاب افتراسًا هو قليل العواء. ثم.. أحس جيليات ببضع قطرات من المطر قليلة ولكن حجمها كبير، ثم سمع قصف الرعد، وبدأت الريح تشتد.. وتوالى قصف الرعد وظهور البرق وكأن حربًا شعواء شنتها الطبيعة على ذلك المخلوق الضعيف القابع وسط البحر فوق الصخر لا يملك سلاحًا سوى عزيمته وإرادته.

وتجاوبت الأمواج مع الرياح والرعد والبرق والسحب، فكونت عصابة وحشية أو كأنها وحش فك إساره فانقض دون رحمة أو تباطؤ.. انقض على رجل اعزل يجلس فوق صخرة.. رجل طالما انتصر على مد البحر وأخطاره.. لكن هناك الفرق الكبير بين مد البحر وهذه الأهوال.

وقذفت الطبيعة بكل ما لديها من سلاح واحتمى جيليات ببضعة ألواح خشبية من حطام السفينة أحضرها وكومها بعضها فوق بعض وقبع تحتها ينتظر فرجًا من عند الله، والريح تزأر بعنف، والموج الصاخب يتلوى فوق سطح البحر كالثعبان والمطر ينهمر مدرارا، والبرق يخطف البصر والرعد يصم السمع.

ونظر جيليات إلى زورقه، وكأنه خلع قلبه من صدره وكان الزورق يرتفع وينخفض فوق سطح الماء ككرة في يد طفل عابث والموج يلطمه فيميله يمينًا ويسارًا حتى أنه كاد ينقلب فقام جيليات من مكانه كالمجنون لا تهمه رياح أو مطر وأتى معه بالسلاسل الحديدية التي في الرافعة وأحكم ربطها في الزورق من ناحية وثبتها في الصخور من الناحية الأخرى، ثم قام إلى حطام السفينة وانتزع منه ألواحًا كبيرة من الخشب ألقاها في البحر - بعد أن ثبتها أيضًا - خلف الزورق - حتى تساعد على تخفيف قسوة الموج وحدته.. وقد بذل مجهودًا فوق طاقته في هذا العمل وكان يعمل بأعصابه لأن انقلاب الزورق معناه الموت بالنسبة له، فهو قد أتى لإنقاذ الماكينة فإما أن يتم العمل أو يهلك دونه.. والموت أهون عليه من العودة إلى جيورنسي خاوي الوفاض إلا من الفشل. والموت أحسن عنده من مواجهة ديروشيت دون أن يحقق أملها.. وأمله في الوقت نفسه.

وكما هبت العاصفة فجأة سكتت فجأة.. فالطبيعة سر كما قلنا يصعب علينا تفسيره.

ففي لحظة واحدة سكتت الريح وتوقف المطر ثم هدأ الموج وانقشع بعض السحاب وعاد البحر إلى هدوئه.. ولكنه لم يكن هدوءًا طبيعيًا والذي عنده خبرة بالبحر يعرف تمامًا أنه في أثناء العاصفة قد يسكت كل شيء ولكن هذا لا يعني نهاية كل شيء إنه "تكتيك" ماهر وتغير

في جبهة الهجوم.. إن فترة السكون يسميها خبراء البحر "عودة العاصفة".

ولقد عادت فعلا، ولكن من جهة الشرق هذه المرة.. عادت فجأة أيضًا، بدأت بقصفة رعد وسنا برق، وكانت مقدمة الهجوم أو طلقة الإشارة بالبدء وبسرعة تكاثفت السحب في السماء وهطل المطر بعنف كأنه سيل جارف وساد الظلام تحت ستارة السحاب الداكنة أو صخب الموج، واشتدت الرياح مرة أخرى.

وكانت تهب من جهة الشرق وفي كل هبة ريح كان الموج يرتفع في عنف وثورة، حتى لكأنه يود لو يحطم شيء.. أي شيء يعترض طريقه... ولم تكن تعترض طريقه غير هضبة "الرجل"، الذي شاء القدر أن تواجه عنف الموج فتكسر حدته فيصل إلى زورق جيليات وقد فقد بعض وحشيته وخطورته.. ساعات مرت على هذا الحال.. وجيليات قابع كجزء من الصخرة نفسها يتأمل باطنه؛ يتأمل الكون المحيط به، يتأمل قدرة الله اللانهائية، ولم يكن جيليات متدينًا بطبيعته ولكنه كان إنسانًا إن لم يحافظ على مظهر الدين من ناحية إقامة شعائره، فإنه في باطنه يعرف أن الله قادر على كل شيء، هو الذي يحيي وهو الذي يميت..

وحل الليل وفي العاصفة يصعب تمييز الليل من النهار فالدنيا كلها ظلام بفعل السحب القاتمة التي تكسو السماء، وحل بجيليات تعب شديد وأخذ الكرى يداعب جفونه، ولكنه كان يقاومه بكل ما أوتي من جهد لأنه كان يخشى المفاجآت كان يريد أن تظل عيناه متجهتين إلى الزورق حتى يطمئن دائمًا على سلامته وكان قلبه يدق بعنف إذا ما تمايل يمينًا أو يسارًا بفعل الموج.

وفجأة، وفي جنح الظلام هوى ثقل كبير على الصخر فأحدث صوتًا هائلًا غطى على هدير الموج وهب جيليات من مكانه فزعًا، واتجه بسرعة يتحسس طريقه إلى الزورق إذ أنه خشي أن يكون قد حدث له مكروه ولكنه وجده سليمًا، واستدار إلى المنطقة التي بين الصخرتين ورأى حطام السفينة درناد التي كانت لا تزال معلقة "محشورة" بين الصخرتين وقد هوت على الصخر، ليكتمل فناؤها ولتسقط - كما نقول عن البشر - جثة هامدة، وكومة من الخشب والحديد وبقايا فحم.. وذكريات.

لم يجزع جيليات كثيرًا لسقوط السفينة بل إنه حمد الله على أن زورقه ما زال سليمًا حتى الآن وأدرك أن العناية الإلهية تساعده بالرغم من كل الظروف.

رجع جيليات إلى مكانه وجلس القرفصاء وركز نظره وجهة الزورق على حين فكره كان في جهة أخرى، بعيدًا عن صخور الدوفرز.. بعيدًا عن العاصفة. بعيدًا عن الموج والمطر.

وهناك في منزل جميل على شاطئ جيورنسي، به حجرة واسعة، بها فراش دافئ..

**وديروشيت هناك.. ترى ماذا تفعل.. هل تنام؟ هل تحلم؟ وبم تحلم؟ أو هي قلقة عليه.. وليذري، هل يجلس في انتظار الغائب.. أم أنه يستمتع الآن بدفء الفراش؟**

**ما أقسى الحياة وما أغربها.. قوم يشقون لقوم آخرين!! لماذا؟**

**كل منا يسعى وراء هدف له في الحياة.**

اشتد زئير الريح، وخيل لجيليات أن صخور الدوفرز العاتية تكاد تقتلع من مكانها، ثم هوى شيء.. شيء ثقيل أيضًا هوى في البحر بجوار الزورق، سمع صوت الزورق وهو يترنح فوق الماء، وجرى إلى هناك، ووجد الزورق وقد تقطعت السلسلة التي تثبته بالصخر من شدة الحركة المستمرة، وتمكن من الإمساك بطرفها وإعادة تثبيتها، ثم تبين له أن ما هوى الآن إنما هو كتلة كبيرة من الصخر، اقتلعتها الرياح من مكانها.. وإنه لم تكن بين الزورق وبين مكان سقوطها إلا قدم واحدة.. ولو سقطت الصخرة فوق الزورق لقلبته وغرق هو والماكينة، واستعاد جيليات أنفاسه وشعر مرة أخرى أن الله يحرس زورقه..

وبعد مدة.. هدأت العاصفة وسكنت الريح، وقل المطر وسكنت الأمواج..

كأنما قد أنهكها جميعًا طول العمل..

وتطلع جيليات إلى السماء وكانت الغيوم لاتزال تحجبها، ورأى طائر بحر يطير.. والعارفون بالبحر، يعلمون أن طير البحر عقب العاصفة هي بشير طيب بانتهائها.. انقشعت السحب، وغمر نور النهار الكون كله.. فقد كان الوقت عندئذ نهارًا واضحًا.

لقد استمرت العاصفة أكثر من عشرين ساعة.. والرياح التي جلبت السحب حملتها بعيدًا وسحبت الطبيعة فلول جيوشها بسرعة وبانت زرقة السماء صافية وعاد الهدوء يغلف المكان.. ولكنا هدوء مشرق منير..

وأحس جيليات بالتعب بعد زوال الخطر.. والنوم يهبط على الجسم المتعب كما يهبط الطائر على عشه وخطا جيليات إلى سطح الزورق وتمدد ... ونام..

# الفصل التاسع

عندما استيقظ جيليات أحس بجوع شديد.

وكان البحر هادئًا الآن ولكن كان هناك بعض التيارات التحتية ولذا فقد آثر ألا يبحر وينتظر بعض الوقت حتى يستعيد البحر هدوءه الكامل وكان النهار قد أوشك أن ينتهي، ولكي يصل إلى جيورنسي في منتصف الليل فإن ذلك يحتم عليه أن يبدأ في مطلع الصباح، ولذا فقد تأكدت لديه ضرورة الانتظار فوق صخور الدوفرز مزيدًا من الوقت.

وكانت ملابسه مبتلة فخلعها وعصرها ونشرها فوق الصخور بعد أن ثبتها بقطع من الصخر حتى لا يطيرها الهواء، وبقي عاريًا إلا من بنطلون شمره حتى ركبتيه ليسهل له الحركة، ثم فكر في الطعام بعد ذلك ولم يكن لديه ما يؤكل، وعبثًا حاول أن ينسى إحساس الجوع المتزايد، ولكن البطن الخاوية كالطفل الصغير الذي لا يكف عن الصراخ، وجال فوق الصخر مرة ومرة يلتقط بعض العشب النابت بين شقوق الصخور، ويلوكه في فمه لعله يقلل من إحساسه بالجوع، ثم ابتسم له الحظ، فعثر على محارة، التقطها كما لو كان قد عثر على صرة من الذهب وأكلها بنهم. ثم قام إلى أخدود بين الصخور وشرب من ماء المطر المتجمع فيه ولكنه أحس بالجوع أيضًا، ذلك أن المحارة التي أكلها لم تكن كافية لإشباعه. وحاول عبثًا العثور على محارة أخرى أو سمك يصطاده، فالعاصفة كانت دافعًا لأن يختفي كل مخلوق، حتى الحيوان والحشرات لينجو كل بنفسه من خطرها.

وقادته قدماه في رحلة البحث عن شيء يؤكل إلى خلف الصخور، وإلى أبواب الكهوف الصغيرة المنتشرة على سطحها ثم دلف إلى حيث دخل مرة من قبل، وسار في الممر المظلم الرطب حتى وصل إلى المكان المتسع الذي أرضه بئر المياه العميقة، ولكنه آثر أن يعود.

واستدار ليرجع من حيث أتى وسار وأوشك أن يصل إلى فتحة الكهف المطل على البحر في المكان الذي وقف فيه كلوبين من قبل وقذف بنفسه منه إلى الماء.. ولم تبق أمام جيليات إلا خطوات قليلة يصبح بعدها في الفضاء الخارجي.. وفجأة شعر بشيء يمسك ذراعه اليمنى من الخلف، واعتراه خوف غريب لا يمكن وصفه.. لقد التف حول ذراعه شيء رطب بارد خشن شبيه بالثعبان كان الظلام شاملًا داخل ممر الكهف، ولم يستطع جيليات أن يتبين طبيعة هذا الشيء الذي أحس به الآن يزحف من فوق ذراعه ملتفًا حول صدره.

تسمر جيليات في مكانه، فقد حدث كل شيء بسرعة أعجزته حتى عن التفكير، ومرت لحظات ثم مد يده إلى "جيب بنطلونه" الأسود واخرج سكينه التي لم تكن تفارقه أبدًا ولكن

شيئًا آخر امتد في الظلام والتفت حول ساقه اليمنى وخيل إليه أن هناك أكثر من مهاجم، وأراد أن يحمي نفسه فاستدار بعنف ليحمي ظهره بجدار الكهف ولكنه كان مشدودًا من يده وصدره وساقه اليمنى، وكاد يتعثر ويقع لولا أن تماسك، وبسرعة شعر بشيء ثالث يلتف حول خصره، ورابع حول رجله اليسرى، وخامس فوق رقبته متحسسها كأنما يريد أن يمتص ما بها من دماء..

حدث كل ذلك بسرعة مذهلة وما أصاب جيليات من رعب وفزع فوق كل تصوره، ثم فجأة برز من الظلام جسم كبير..هو مصدر كل هذه الأذرع له رأس صغير غير متناسق مع جسمه الضخم، والأذرع الكثيرة الممتدة منه وكانت عيناه مركزتين على جيليات في ضراوة .. واتضح الخطر أمام جيليات الآن تماما.. فقد كان الحيوان الواقف أمامه.. أخطبوط كبير.

# الفصل العاشر

ذلك هو الحيوان الذي وقع جيليات بين براثنه.. الأخطبوط، وحش الوحوش ومصدر الهول لكل من جاب البحار..

تمكن الأخطبوط من جيليات تماما، كما تتمكن الضفدعة من الفراشة، ولف اذرعه حول ساقيه ووسطه ورقبته وصدره ويده اليمنى ولم يتبق لجيليات سوى اليسرى التي امسك بها السكين. وكما هو معروف يوجد للأخطبوط ثمانية اذرع لف منها خمسة حول جيليات على حين لف الثلاثة الباقية حول كتل الصخر من الكهف، وبهذا أصبح جيليات مقيدًا إلى الصخر لا يستطيع حراكًا.. وقد التف حول جسمه مائتان وخمسون فمًا - حيث أن بكل ذراع للأخطبوط خمسين فمًا يمتص بها دماء فريسته، فيا له من هول تشيب له الرءوس، ويتوقف نبض القلب خوفًا منه..

لقد أنقذه القدر من العاصفة ليلقي به بين مخالب هذا الوحش الرهيب الذي يمتص الدم ويأكل اللحم ويرمي العظم فيزيل كل أثر للإنسان من الوجود!!

ومن الصعب أن يحاول جيليات أن يقطع أحد أذرع الأخطبوط بالسكين الذي يقبض عليها بيده اليسرى فليست هي اليد الوحيدة التي تقبض عليه وسيؤدي ذلك إلى نهايته بلا شك، كما أن الأخطبوط يزداد ضراوة كلما ازدادت مقاومة فريسته، فكل جهد يبذل للخلاص، يقابله جهد مماثل للامساك وهكذا الحال دائمًا بين الفريسة والمفترس الأول ينشد الخلاص والثاني يبغي البطش.

وكان خلاص جيليات في سكينه.. ويده اليسرى التي لم يلف عليها الأخطبوط أحد أذرعه حتى الآن.. ولكننا ندرك تمامًا مدى قوة جيليات الحالية، بعد أن أنهكه العمل والجوع والبرد طوال شهرين قضاهما في هذه البعثة المميتة.

أي أن اليد اليسرى الطليقة.. لم تكن أقوى من اليد اليمنى المقيدة..

وماذا يفعل جيليات بالسكين؟!

إن جلد الأخطبوط بما عليه من حراشيف يجعل السكين كقطعة من الحديد البارد عديمة الفائدة عاجزة عن القطع والتوغل داخل الجلد واللحم.

ولكن لكل مشكلة حل.. ولكل مأزق مخرج.. ورواد البحار يعرفون أن رأس الأخطبوط وبالتحديد المنطقة التي بين عينيه هي أضعف جزء في جسمه، والجلد الذي يكسوها لين سهل القطع، كما أنه في هذه المنطقة يكمن سر الحياة عند هذا الوحش، تمامًا مثل القلب في الإنسان.

اشتدت قبضة جيليات على السكين واشتدت أذرع الأخطبوط التي تطوق جيليات حتى أحس بنفسه وكأن جسمه يعتصر.

وتبادل الاثنان النظرات.

وفجأة أطلت الأخطبوط أحد أذرعه "ليكتف" ذراع جيليات الأيسر، ثم تقدم برأسه ناحية صدر جيليات.. لحظات ولمس رأس الوحش صدر الفريسة لينهشه.

ولكن جيليات كان متيقظًا فقد لف جسمه قليلًا ليتفادى من رأس الوحش وفي الوقت نفسه صوب السكين ناحية رأس الوحش، تمامًا بين عينيه وبكل ما أوتي من قوة غرز السكين، حدث ذلك بمنتهى السرعة تمامًا مثلما يستغرق ضوء البرق الذي يظهر ويختفي فجأة من السماء... وترنح الوحش تحت ضربة جيليات وكأنما أراد الأخير أن يؤكد موت الوحش، فنزع السكين وغرزها، ونزعها وغرزها..مدفوعًا برغبة جنونية إلى الخلاص، وازدياد الخطر يزيد من شجاعة الإنسان دائمًا.

وتراخت أذرع الأخطبوط وتدلى رأسه والدم ينفجر منها كعين ماء انبثقت وسط الصحراء وتهاوى جسمه على الأرض وسقط ميتا.

# الفصل الحادي عشر

**هكذا قتل جيليات الأخطبوط.**

وكان جسم جيليات ينزف دمًا من أماكن كثيرة نتيجة غرز الأخطبوط ماصات الدماء المنتشرة على اذرعه وأراد أن يغطس في مياه البحر المالحة لتوقف نزف الدم.. واستدار, وفجأة وقعت عينه في ركن مظلم من الكهف على منظر يشيب له الرأس هولا.

لقد رأى رأس آدمي تأكل لحمه ملقى بجوار الركن المظلم من آخر ممر الكهف ولم يكن الرأس وحده بل يتصل به هيكل عظمي كامل.

كان جيليات معتادًا الوحدة ولم يكن يؤمن بالأشباح أو الأرواح أو أي شيء من هذا القبيل ولكنه عندما رأى هذا الهيكل العظمي ارتعشت ركبتاه وملأ التقزز نفسه وفي ركن آخر وجد كومة من العظام الآدمية.. أرجل, أعمدة فقرية, أقفاص صدرية جماجم أفواهها مفتوحة كان أصحابها قد أصابهم رعب شديد قبل أن يفقدوا الحياة.. وكان واضحًا أنه قد مضى زمن طويل على تلك الكومة من العظام, وكان واضحا أيضًا أن الهيكل العظمي الكامل حديث عهد بالموت. مر عليه شهران أو ثلاثة على أكثر تقديرا ولم تكن هناك أية بقايا ملابس.. يدل أن الضحية كانت عارية عندما داهمها الوحش, والرأس يشير إلى أن الهيكل العظمي لرجل.. ترى من يكون؟ من يكون تعس الحظ الذي أوقعه القدر بين مخالب هذا الوحش فسقاه كأس الموت.. ومن أي مكان اقتنصه؟ من على شاطئ, أو من فوق سفينة.. وكان الهيكل يبدو وكأنه أعد ليلقي عليه أحد الأساتذة درسًا في التشريح فكل اللحم قد انتزع, ولم تنقص من الهيكل عظمة واحدة.

وقلب جيليات الهيكل بقدمه وفجأة رأى تحته شيئًا يشبه الحزام.. وكان مصنوعًا من الجلد فانتزعه وتحسسه ووجد أن به شيئًا صلبًا فمزقه بسكينه وأخرج علبة حديدية صغيرة وبضع قطع ذهبية عدها جيليات فوجدها عشرين قطعة وكانت العلبة الحديدية أشبه بعلب التبغ الذي يستعملها البحارة, وقد علاها بعض الصدأ حاول جيليات أن يفتحها فلم يفلح نتيجة لتراكم الصدأ على أطرافها فلجأ إلى سكينه وفتحها به ولم يجد بداخلها شيئًا سوى بضع ورقات.. فضها جيليات ودهش عندما وجدها ثلاث ورقات "عملة" مالية قيمة كل منها ألف جنيه إسترليني.. أي أن مجموعها كلها كان يبلغ ما قيمته خمسة وسبعون ألف فرنك.

وضع جيليات الأوراق داخل العلبة ووضع داخلها أيضًا القطع الذهبية, ثم أغلقها وتيقن من إحكام غلقها, ثم امسك ببقايا الحزام ليعيد فحصها وكم كانت دهشته بالغة عندما وجد اسم كلوبين مكتوبًا عليه من الخلف.

# الفصل الثاني عشر

وضع جيليات العلبة الحديدية بما تحتويه من ثروة وكذلك الجزء من الحزام المنقوش عليه اسم كلوبين في جيبه, وقفل خارجًا من الكهف تاركًا هيكل كلوبين وبجواره جثة الأخطبوط. ولكنه في أثناء انشغاله بمغامراته داخل الكهف, كان المد قد ارتفع وغطى الماء فوهة الكهف, ولذا تحتم عليه أن يغوص كله في الماء حتى خرج, وظهر على سطح الماء واعتلى قاعدة الصخور مرة أخرى. وكان من السهل عليه الآن أن يدرك المأساة التي حدثت في ذلك المكان منذ عشر أسابيع خلت, لقد قتل وحش وحشًا آخر اقتنص الأخطبوط كلوبين, لقد اقتص الحيوان الوحش من الإنسان الوحش فما أعدل الجزاء!!

قرر جيليات أن يبحر بزورقه في الصباح فالعاصفة القوية كالمعتاد يتبعها جو هادئ والتيارات التحتية التي كانت تعطل رحيله قبل مغادرة الكهف قد عدمت الآن ولم يتبق أمامه إلا أن يخرج بزورقه وعليه الماكينة في الصباح المبكر إلى عرض البحر, ثم ييمم وجهه شطر جيورنسي. وكانت هناك نسمة خفيفة تهب من جهة الجنوب الغربي سوف تساعده لا محالة في الإبحار.

كانت الشمس قد غربت وكان اليوم من أيام الربع الأول من الشهر القمري ولذا فقد ظهر جزء من القمر في السماء وارتفع المد إلى زورقه وبدأ يهبط.. واستعد جيليات ليأخذ نصيبه من النوم والراحة تمهيدًا لرحلة العودة..

وذهب إلى زورقه لينام فوقه كما فعل في الليلة السابقة, بعد أن أخذ ملابسه التي كان قد نشرها لتجف ليلبسها قبل النوم.

ولكن مفاجأة جديدة كانت في انتظار جيليات المسكين!!

فقد كان الزورق على وشك الغرق... والسبب هو أنه وجد في باطنه ماء عمقه قدمان تقريبا.. وإذا تذكرنا نقل الماكينة وترنح الزورق تحتها أدركنا ماذا يعني أي ثقل أضافي.. فإذا ما ارتفع الماء في جوف الزورق إلى قدمين فإن هذا يعني كارثة محققة..

وكاد جيليات يجن..

هل أتى هذا الماء من المطر؟ لا, فليلة أمس, بعد أن توقف هطل المطر, كان قد تجمع في باطن الزورق بعض الماء.. ارتفاعه بوصتان فقط, ولم ير جيليات في وجوده مصدر خطر وأرجأ "نزحه" حتى الصباح, ثم شغل في مغامراته الدامية مع الأخطبوط والبوصتان أصبحتا قدمين..

وها هو ذا خطر أشد من خطر الأخطبوط يحلق فوقه، فخطر الأخطبوط كان مقصورًا عليه هو، على شخصه، على حياته، وهذا لا يهم طالما كان الزورق والماكينة في أمان.. أما هذه المرة فالخطر يعصف بآماله وأحلامه.

يجب أن "ينزح" هذا الماء حالًا، فأي تأخير قد يعجل بنهاية الزورق. وصار يؤنب نفسه على أنه فكر في أن يأكل ويشرب، لأن سلامة الزورق أهم من أكله وشربه، وتذوق جيليات قطرة من الماء المتجمع في الزورق، ووجده ماء ملحا.. إذن فالمطر ليس السبب ولابد أن هناك ثقبًا في باطن الزورق تسرب منه الماء إلى الداخل.

وكان من الضروري أن يتوصل إلى هذا الثقب ويسده بسرعة ثم "ينزح" الماء من الزورق، ولسوء حظه كانت في درناد مضخة لجذب الماء ولكنها تحطمت عندما سقط باقي الحطام فوق الصخور.

وكان جسمه يرتعش ولكنه لم يكن يبالي بأي شيء يتعلق بذاته فقد كانت المهمة الأولى العاجلة هي أن يبحث عن مكان الثقب.. ووجده ثقبًا صغيرًا ولكنه كافيًا لدخول الماء، والأشياء الصغيرة أحيانًا تتسبب في الكثير من المخاطر، ومعظم النار من مستصغر الشرر...

وكان الماء يتدفق من الثقب باستمرار ومنسوبه في جوف الزورق يتزايد مما يدعو إلى شيء سريع جدًا قبل أن تصبح الكارثة محققة.

# الفصل الثالث عشر

لم يكن أمامه غير معطفه الجلدي فنسيجه لا يسمح للماء بالتسرب خلاله ولذا فقد كوره وحشا جزءًا منه في الثقب بكل قوة ثم وضع بقية المعطف فوق منطقة الثقب كلها ووضع فوقها قطعة من الصخر لتضغط عليه ولا تسمح للماء بالتسرب.. وفعلًا توقف اندفاع المزيد من المياه.

وأصبح عليه بعد ذلك أن "ينزح" الماء الموجود فعلا. وبدلو وجده في درناد, بدأ يخرج الماء من باطن الزورق ويلقيه في البحر وشعر ببعض الدفء نتيجة للجهد المبذول, ولكنه كان في قمة التعب والإرهاق, وكان معتادًا التعب, معتادًا العمل فاستمر يعمل حتى "نزح" كل الماء الذي في باطن الزورق.. وكادت قواه تخور!!

وأحس أنه لم يعد قادرًا على أن يرفع يده.. لقد فعل وحده معجزة استهلك في أدائها كل طاقة جهد يملكها.. ولكنه يخشى المستقبل.. حقًا لقد سد ثقب الزورق "ونزح" الماء وأصبح مستعدًا للإبحار, لكن من يضمن له أن الطبيعة ستظل على ذلك الهدوء..

آه لو كان معه شخص آخر يأخذ بيده يستأنس به ويشد من ساعديه لكن من أين يأتي هذا الشخص: هل خلا البحر من السفن.

وخطرت في ذهنه فكرة: لابد أن هناك قاربًا أو زورقًا يمر بالمنطقة ولو عن بعد, وربما تمكن أن يسترعي انتباه ركابه فيأتوا لمساعدته.

كم تغير جيليات في تفكيره!! منذ أن أتى إلى منطقة الدوفرز لم يفكر قط في طلب مساعدة أحد, ولكنه وصل الآن إلى درجة الحاجة إلى المساعدة فقد يتسرب الماء مرة ثانية خلال الثقب وهو ضعيف متعب لا يقوى على المقاومة.

كان الجو هادئًا ساكنًا وقرر جيليات أن يصعد فوق صخرة الدوفرز الكبيرة حتى يستطيع إذا ما رأى قاربًا أو سفينة على امتداد بصره أن يصرخ فربما سمعه أحد, ولكن الأفق كان أمامه ممتدًا خاليًا ليس به ظل شراع, وخاب أمل جيليات, وأصبحت أية مساعدة يبغيها مستحيلة كما أصبحت مقاومته لأي خطر مستحيلة أيضًا وأحس لأول مرة بأنه كقطعة السكر التي تذوب في الماء.. وأنه على وشك العدم.

إن القدر هو سيده الآن.. فبالرغم من كل جهده وكل نجاحه فيما عمل, وكل شجاعته.. فإنه هو وزورقه بحمله الثمين, تحت رحمة البحر وموجه ومياهه الآن, ولا سبيل أمامه للنضال.

كيف سيمنع المد من أن يأتي والماء من أن يرتفع والظلام من أن يستحكم! إن ما يخشاه جمايات الآن هو أن يرتفع المد ويزداد ضغط الماء تحت الزورق فيتسرب الماء إلى باطنه مرة ثالية.

فليترك الزورق يناضل هذه المرة، ليقاوم ضغط المد وارتفاعه فقد فعل هو كل ما في استطاعته مخلوق أن يفعله ولا يستطيع الآن إلا أن يقف موقف المتفرج المستسلم لقوى أعتى وأشد.

ما أقسى وحدته.. إن العزلة تشمله.

كم من المخاطر مر بها. فالرياح كانت دائما كالخطر الداهم تهدده في كل دقيقة والبحر كم يتوعده في كل دفعة موج.

ولكنه وهو الرجل الأعزل حارب وناضل البحر وصارع العاصفة!!

لم تبق صورة للبؤس لم يمر بها. اشتغل بدون آلات، رفع أحمالًا ثقيلة على كتفيه، حل مشاكل عدة بدون علم أو خبرة سابقة أكل وشرب دون أن يكون لديه مؤونة مخزونة، وجد المأوى فوق صخرة جرداء.

لقد تحمل كل قسوة الطبيعة التي إن هدأت لحظة فإنها تثور أيامًا..

انتصر على الوحدة. انتصر على الجوع، انتصر على العطش، انتصر على الحمى، وعلى المشقة، وعلى النوم. تغلب على مئات العقبات التي اعترضت خطة العمل التي رسمها، وفوق ذلك كله انتصر على كل جيوش الطبيعة التي كانت زاحفة لتحمي وجوده.. انتصر على البحر، على العاصفة، على الأخطبوط، ثم أخيرًا قاوم ثقب الزورق، كم من مرة أطبق عليه الموت بأنيابه ثم خرج من بين براثنه وعروق الحياة مازالت تنبض فيه!.

برد الشتاء، التعب، الإرهاق، الجوع، فصل الماكينة عن حطامها، إنزالها من القارب، مقاومة العاصفة ووحش البحر.. ولكن فوق ذلك كله، وأخطر من ذلك كله ثقب الزورق لأنه الوحيد الذي كاد يصيب آماله في مقتل.

فالإنسان يستطيع أن يقاوم البرد بإضرام النار، ويستطيع أن يواجه الجوع بمحار البحر وأسماكه، والعطش بتجمعات مياه الأمطار، ويتغلب على مشاكل كل العمل بالجهد ويتغلب على الأخطبوط بالسكين، ولكنه إزاء الثقب الذي في باطن الزورق لا يجد أمامه أي شيء يواجهه مواجهة حاسمة نهائية.

وهو الآن فوق قمة الدوفرز الكبرى ولو خانه الثقب وتسرب الماء من خلاله إلى جوف الزورق لترنح الزورق وغاص في أعماق البحر ولا تستطيع أية قوة أن تنتشله مرة ثانية. فهل يقدر لهذا الكفاح النبيل الذي استغرق شهرين من الجهد الخارق أن ينتهي في قاع البحر؟

ما أقسى أن ينتظر الإنسان وهو يحس أن هناك قوة اكبر منه قد تعصف بأحلامه!!

قضى شهرين كاملين في صراع مرير مع البحر بريحه وموجه وأهواله وأخطاره.. وهو الوحيد الأعزل إلا من عقل الإنسان وعزيمته فهل يقدر لتلك البطولة المثلى أن تنتهي تلك النهاية الحالكة؟

وتحسس جيليات جسمه بيده وكان في وسط هذه اللانهاية عاريًا إلا من بنطلونه الممزق الذي لا يغطي إلا ما فوق ركبتيه..

وتهادى فوق قمة الصخرة في وسط ذلك السكون الشامل إلا من همس الموج، وهب النسيم، ووسط ذلك الظلام المطبق لا أنيس إلا بضعة نجوم ظهرت في كبد السماء وملائكة الليل وشياطينه تمرح في الفضاء.. ووسط ذلك كله سقط جيليات في يأس واستسلام ولم يعد قادرًا على المقاومة ورقد على ظهره والقنوط يمزق جوانحه ورفع يديه إلى السماء وقال وقلبه يخرج مع كل حرف:

- الرحمة..

وارتخى كل جسمه وغرق في صلاة داخلية.. ثم أطبق جفنيه أو أطبقهما النوم.

# الفصل الرابع عشر

مرت بضع ساعات وانقضى الليل وانبلج النهار وارتفعت الشمس في السماء الصافية، وأرسلت أشعتها الأولى فوق جيليات الذي كان لايزال في مكانه نائمًا.

منذ أن تمدد على قمة الصخرة، لم يتحرك، عاريًا باردًا، ولكنه لم يرتعش.. وكان جفناه قد انفرجا قليلًا عن عينيه وكان أي ناظر يشعر أن الراقد أمامه ليس به حياة بل جثة هامدة..

وكأن الشمس كانت تنظر إليه وهو راقد..

هل هو ميت أو حي.

حتى لو لم يكن ميتا.. فإنه على أبواب الموت.

وانبعث في الجو نسمات ريح، ولكنها كانت محملة بدفء الشمس الذي ازداد ارتفاعها في السماء حتى توسطتها مرسلة المزيد من الأشعة الدافئة فوق ذلك الراقد دون حراك.

وبعد فترة تنهد الراقد.. وكانت هذه الظاهرة أولى دلائل الحياة..

وتحسست أشعة الشمس جسمه كالأم الحنون، تلامس طفلها بشفتيها فتنفث أنفاسها فيه دافئة.

وتحرك جيليات.

كان البحر هادئًا، هديره الهامس أشبه بهمس ممرضة بجوار فراش مريض.

وحامت طيور البحر فوقه وارتفعت أصواتها كأنها تداعبه. ولم يفتح جيليات عينيه واقترب منه طائر، حط على كتفه ونقر شفتيه في رقة كأنما يقبله.

وفتح جيليات عينيه..

وطار الطائر كأنه خجل من قبلته، ونهض جيليات وتمطى كأسد قائم من النوم وأسرع إلى حافة القمة ينظر إلى حيث يرسو الزورق.

ووجده في مكانه... دون ماء في باطنه.

نسي جيليات تعبه، واستعاد بعض قوته، كأنما غسل النوم بعض يأسه وقنوطه ونزل من فوق الهضبة بسرعة وخفة، ثم ارتدى ملابسه كلها وبحث عن شيء يؤكل، ووجد محارة أمسك بها رمقه، ثم شرب، وحمد الله.

وفي ضوء النهار، فحص الثقب الذي في قاع الزورق ووجد أنه من الخطورة أن يعتمد على معطفه الجلدي في سده، وأنه لابد من لوح من الخشب يدقه فوقه حتى يضمن الأمان..

وقضى بقية نهاره في أعمال التجارة اللازمة..

وفي صباح اليوم التالي مع ظهور خيوط الشمس، ارتدى معطفه الجلدي وربط حزام كلوبين بعلبته الحديدية التي تحتوي على الأوراق المالية ذات الخمس والسبعين ألف فرنك ونزل في الزورق وكله نشاط وتحفز ووقف بجوار ماكينة درناد الرابضة فوق الزورق، والبحر هادئ والسماء صافية والشمس مشرقة والنسيم يهب رقيقًا..

ونظر جيليات إلى السماء، ثم فك السلسلة التي كانت تربط الزورق بالصخرة ودفعه بقوة في طريقه بعيدًا عن صخور الدوفرز.

ووجه الزورق شطر جيورنسي.

ثم نشر شراع زورقه وجلس بجوار الدفة يدندن بلحن هادئ وصوت منخفض.

# الجزء الثالث

## الفصل الأول

اعتاد سكان سانت سامبسون كغيرهم من سكان المدن الساحلية في ذلك الوقت, أن يناموا مبكرين ويستيقظوا مبكرين.

في ذلك الوقت, حيث هبت طلائع الربيع الأولى, اعتاد الناس أن يناموا مع غروب الشمس وأن يستيقظوا مع شروقها وكان من الصعب أن ترى شمعة مضيئة بالليل فالكل ينام.

ويحترف معظم سكان سانت سامبسون - ما عدا بعض العائلات الغنية - مهنة النجارة أو الحدادة المتعلقة بإصلاح القوارب والسفن والعمال يقضون يومهم في نشاط وكد, حتى إذا حل الليل كان التعب قد أضناهم فيغرقون في نوم عميق.

وذات مساء في مطلع شهر مايو عاد ليذري إلى غرفته التي تطل على الميناء بعد أن مشى قليلًا على شاطئ البحر يرقب بزوغ القمر وزرقة السماء وبعد أن ملأ عينيه برؤية ديروشيت الجميلة وهي جالسة في الحديقة تملأ رئتيها بهواء ليالي الربيع الصافية, على حين كان دوس وجريس الخادمان مستغرقين في النوم.

كان كل شيء في المنزل هادئًا ساكنًا والنوافذ والأبواب مغلقة والشوارع خالية مهجورة, على حين تطل من بعض نوافذ قلة من منازل الميناء بعض الأضواء الخافتة. ثم انطفأ معظمها, ودقت أجراس الكنيسة تسع دقات معلنة الساعة التاسعة.

عندما كان ليذري غنيًا, كانت له شعبية في الميناء, الكل يتودد إليه, أما الآن وقد تبددت ثروته بعد تحطيم السفينة درناد فإن أحدًا لم يعد يهتم به سواء راح أو جاء.. والحظ السيئ مثل الوباء ينتشر بسرعة كبيرة.

وخيم جدار من العزلة حول البرافير - فنزل ليذري ولم يعد أحد من أغنياء الشباب يتودد إلى ديروشيت كما كان من قبل, وعاش سكان المنزل في وحدة بعيدين عن أخبار الميناء حتى أن الخبر الهام الذي كانت تتناقله كل الألسن لم يستطع أن يخترق جدران البرافير ليصل إلى مسامع سكانه.

والخبر الهام هو أن مسجل الميناء السيد المحترم كودري قد أصبح غنيًا فجأة إذ مات عمه في لندن وقد حملت هذه الأنباء مع بريد الميناء السفينة "كاشمير" التي وصلت ميناء سانت

بيتر هذا الصباح. وكان مقدرًا للسفينة كاشمير أن ترحل إلى سوثهامبتون ظهر اليوم التالي، ومن المقرر أن السيد كودري سوف يستقلها إلى لندن ليحضر الحفل الرسمي لقراءة وصية الراحل الكريم.

وتمركز محور الحديث في سانت سامبسون طوال اليوم حول هذا الموضوع المثير حول السفينة كاشمير التي أتت بالخبر حول الميناء والوريث ومقدار الثروة ومشروعات المستقبل. تكهنات تناقلتها الألسن العطشى إلى الإشاعات والأخبار المثيرة في الميناء.

منزل واحد كان بمنأى عن هذا الحديث.. ذلك هو منزل ليذري..

عندما دخل ليذري غرفته ألقى بنفسه وهو لا يزال مرتديًا ملابسه فوق الفراش، فمنذ أن تحطمت درناد أصبح ذلك الفراش هو مرفأ الأمان الوحيد له يلجأ إليه كلما هده التفكير. فالسجين يجد راحته عندما يستلقي على فراشه ليستريح من ألم حياة السجن، ولقد كان ليذري سجين الحزن، ورقاده على السرير كان بمثابة هدنة أو فترة راحة يستعيد فيها أنفاسه المضطربة، ونفسه المكلومة، ولم يكن غرق في النوم ولا في الكلام.. كان في شبه غيبوبة أو حلم منذ شهرين ونصف أي منذ أن حلت به مصيبة درناد، وحتى الآن لم يستطع أن يسترد نفسه من ذلك الحلم.. كان هناك شيء أشبه بالغيام يغلف حواسه فيضعف قدرتها ويبعدها عن واقعها ويجعل صاحبها كمن يكون تحت تأثير مخدر طويل الأثر قوي المفعول.. فنومه كان يقظة ويقظته كانت نومًا، يصعب على الإنسان التفرقة بينهما..

وكان عندما يستلقي على فراشه يحاول أن يفكر في أي شيء وكان يجد بعض الراحة في محاولة النسيان. أحيانًا كان يتخيل أن الإمبراطور نابليون يملي عليه تاريخ حياته، وأحيانًا كان يتخيل أن المنزل كان مملوءًا بفتيات كثيرات كلهن يحملن اسم وشكل ديروشيت وأحيانًا كان يتخيل الشوارع، والأفاعي تلدغ كل من يحاول أن يطرقها.. لم تكن أحلامًا بل كوابيس ولكنها كانت تبعده عن الواقع الذي كان يعذبه كثيرًا..

كان في بعض الأحيان يقضي نهاره كله في حجرته يطل من النافذة المواجهة للميناء واضعًا يده على خده وعيناه مركزتان على جرس كبير معلق في فناء المنزل الخارجي، اعتاد أن يدقه تحية لدرناد عند رحيلها وعند أوبتها. كم علا الصدأ هذا الجرس الآن.

كان ليذري يعيش لا لأنه يرغب في الحياة ولكن لأن "ميكانيكية" الجسم مازالت تعطيه القدرة على الحياة.. كان دائمًا يحدث نفسه لم يبق لي شيء سوى انتظار النهاية.

كان يعيش في ظلام كل شيء من حوله مظلم قاتم، شيء واحد كان يستطيع أن يبدد جزءًا

من تلك الظلمة وهذا الشيء هو ابتسامة ديروشيت.

وكانت ديروشيت من أثر الصدمة التي حلت بهم قد فقدت ابتسامتها وخاصة في الأيام الأولى، وتخلت عنها روحها المرحة وإشراقتها الحلوة، كانت تبدو شبه جادة حزينة وإن تكلفت الضحك أمام ليذري لتسري عنه، ولكنها في داخلها كانت حزينة لحزنه والحزن يعدي في بعض الأحيان..

ولم يقتصر التغيير على نفسيتها، بل تغيرت بعض عاداتها أيضًا وأصبحت منتظمة في ترددها على الكنيسة لا يفوتها أي قداس ولا تتأخر عن أية صلاة، وقد لاحظ الناس ذلك وسروا له في داخلهم، فالناس دائمًا يرحبون بالإيمان في غيرهم حتى ولو كانوا هم بعيدين عن الإيمان. كانت ديروشيت في الماضي لا تذهب إلى الكنيسة إلا في المناسبات الخاصة بالأعياد وهي أربع مرات في السنة أما هذه الأيام فتذهب مرتين في الأسبوع على الأقل.

كما أنها كانت تجد بعض السلوى في الجلوس وحدها في الحديقة في المساء، كلما سنحت ظروف "الطقس" بذلك، وتظل هائمة بخيالها مع القمر ومع النجوم ثم تذهب لتنام عندما يضنيها التفكير، وتشرد بها الأحلام.

في عصر ذات يوم من الخامس عشر إلى العشرين من ابريل طرق موزع البريد منزل ليذري وفتح دوس الباب وتناول رسالة "معنونة" باسم ليذري وعليها طابع بريد لشبونه، وحمل دوس الرسالة إلى ليذري الذي كان عندئذ في غرفته فأخذها وألقاها بغير اهتمام على منضدة بالغرفة دون أن يحاول فتحها ومعرفة ما فيها وظلت الرسالة ملقاة هكذا أسبوعًا كاملًا.

وذات صباح، ذكر دوس ليذري بالرسالة فتناولها بدون اكتراث وفتحها، وكانت كالآتي:

"عرض البحر في أول مارس

إلى السيد ليذري في سانت سامبسون،

سوف تحمد لي فضل إرسال هذه الرسالة التي اكتبها لك وأنا في عرض البحر على ظهر الباخرة "تاموليباس" في طريقي إلى ميناء "عدم العودة" وبين بحارة السفينة بحار اسمه آهلير توستفين وهو من جيورنسي وعند عودته سيحمل لك بعض الحقائق التي يهمك سماعها وقد انتهزت مرور زورق بالقرب من السفينة متجهًا إلى لشبونة، فحملته هذه الرسالة ليرسلها لك من هناك.

ولسوف يدهشك أن تعلم أني رجل أمين. تمامًا مثل كلوبين!

**طبعًا وصلتك الآن بعض الأنباء عن كلوبين ولكن يهمني أن تعرف بقيتها. فلقد أعدت لك نقودك.**

**فمنذ عدة سنين اقترضت منك - بدون علمك أو إذنك - مبلغ خمسين ألف فرنك وقبل أن أرحل من سانت مالو دفعت باسمك إلى صديقك وقائد سفينتك الوفي كلوبين ثلاث ورقات مالية قيمتها ثلاثة آلاف جنيه إسترليني أي خمسة وسبعون ألف فرنك وأظن أن المبلغ الزائد يعد تعويضًا لك عن أخذي لنقودك دون علمك. لقد مثلك كلوبين وتحدث إلي باسمك وحصل على نقودك ليوصلها لك، وكان في غاية الحماس لاسترداد حقوقك وهذا هو ما دفعني إلى الكتابة إليك.**

**المخلص**

رانتين

ملحوظة: كان كلوبين يحمل مسدسًا ولعلك تدرك أن هذا هو السبب في عدم مطالبتي له بإيصال بما أخذ.

كان وقع هذه الرسالة على ليذري كموقع انفجار طوربيد ضخم على الأذن هذه الرسالة ظلت مهملة على المنضدة أسبوعًا كاملًا على حين تحوي هذه الأنباء المثيرة المذهلة.

كان الخط الذي كتبت به الرسالة هو خط رانتين فعلًا وكان من السهل على ليذري أن يتعرف على توقيعه أيضًا.. ولكن ما حوته الرسالة من حقائق كان من الصعب على ليذري أن يفهمها توًا، مما حدا به إلى قراءتها مرة ومرة.. واستعاد كل حواسه ونشاطه العقلي للتركيز على ما بها من أحداث. فمنذ فترة عقب اختفاء كلوبين أخذ الناس يستعيدون ذكره.. وهو الذي طالما آمن الناس بأمانته وخلقه الفاضل.. وبدأ بعض الشك يحيط به وبدأت بعض الألسنة تتكلم عنه بطريقة مخالفة لما كانوا يتحدثون به عنه من قبل.

تناقلت الألسنة حادث مقتل حارس السواحل رقم 619 بالقرب من ميناء سانت مالو التي أبحرت إلى شيلي. حقيقة أن الأنظار لم تتجه إلى اسم رانتين إلا أن هناك أيضًا من حاول أن يربط بين رحيل تاموليباس وبين تحطيم درناد في عرض البحر. واعترف صاحب محل لبيع الخمور في سانت مالو أن كلوبين اشترى منه زجاجة براندي في الليلة السابقة لرحيله.. فلمن اشتراها؟

والحداد أيضًا تكلم، وقال:

- إن كلوبين قد اشترى مسدسا لمن؟ .. ولماذا؟

وصاحب الحانة أيضًا تكلم.. لقد تغيب كلوبين عن الحانة كثيرًا في الليلة السابقة لإبحاره.

وكابتن كابوريه أيضًا .. قال:

- إن كلوبين صمم على الإبحار بالرغم من أنه حذره, وقال له أن ضبابًا كثيفًا سوف يحجب الرؤية..

وكذلك تكلم بحارة درناد والركاب. قال المواطن الجيورنسي:

- إن كلوبين كان يظن أن درناد اصطدمت بصخور الهانواي.

وتكلم الصبية الذين زاروا البيت المهجور بالليل ورأوا شخصًا يتفق مع أحد المهربين على نقله على سفينة مقابل بعض المال وعند تفتيش ذلك المنزل عثر على حقيبة كلوبين وكانت تحوي بعض المؤونة "وفلسكوبا" وبوصلة وبعض الملابس عليها اسم كلوبين.

كل هذه الدلائل جمعت لتعطي صورة واضحة لما حدث ولتلقي الكثير من الشك والريبة حول بطولة كلوبين المزعومة. وتأكد لدى الناس أن الصخور قد خانته فظن نفسه على الهانواي وهو في الواقع على الدوفرز, ولو كان على الهانواي لسهل عليه الوصول إلى الشاطئ سابحًا, ثم يختفي في المنزل المهجور في انتظار وصول المهرب الذي سيقله بعيدًا.

وكثرت إشاعات الناس وكثرت تخميناتهم وغريزة الرأي العام دائمًا سليمة, وبدءوا يربطون بين مقتل حارس السواحل وبين كلوبين حقيقة أنه ليس الفاعل الأصلي. ولكن هناك رابطة ما بين الطرفين... ما هي؟ لا أحد يعرف.

وظلت هناك حلقة مفقودة لم يستطع أحد أن يتوصل لها.

لماذا فعل كلوبين ذلك.. إن كان فعلًا هو الفاعل؟

لم حطم السفينة متعمدًا؟ إن الناس لا تحطم السفن لمجرد متعة تحطيمها وأي شخص لا يخاطر وسط الضباب والصخور بدون هدف ودافع قوي يستهان - في سبيل تحقيقه - بالأخطار.

فماذا كان هدف كلوبين وما هو دافعه؟

إن الفعل كان واضحًا, ولكن الدافع إليه لم يكن في مثل وضوحه.

كانت الحلقة المفقودة هامة لتكتمل الصورة.

وكانت رسالة رانتين هي هذه الحلقة.. التي لم تعد مفقودة.

خمس وسبعون ألف فرنك دفعت كلوبين إلى أن يفعل كل ذلك.

وكان رانتين هو الوسيلة ورسالته هي وثيقة الاتهام.

ولكن.. أين هو الآن؟ ماذا حدث له؟ هل هلك فوق صخور الدوفرز؟ شغل هذا الموضوع تفكير ليذري بضعة أيام وساعده التفكير على أن يستعيد حالته الطبيعية فبدأ يشارك الناس في حياتهم ويشاركهم بعض الشيء في أحاديثهم.

في ذلك المساء الذي تحدثنا عنه في أول ذلك الفصل دخل ليذري حجرته تاركًا ديروشيت تناجي القمر في حديقة المنزل. وكان التفكير فوق احتماله. إنه يدرك الآن أنه هوى من القمة إلى الحضيض.. كان من ابرز رجال الميناء. سفينته كانت تدر عليه إيرادًا سخيًا, ثم خسرها وخسر إيرادها.. وها هو ذا يخسر خمسة وسبعين ألف فرنك.. تجمعت المصائب عليه وأخذ يفكر في أمر حياته.. كيف سيدبر معيشته هو وديروشيت. إن من أصعب الأمور وأقساها أن يضطر الإنسان أن ينزل إلى مستوى معيشة أقل مما تعوده.. ماذا سيكون من أمره ومن أمر ديروشيت.. أطنان من البؤس حطت فوق كتفيه, فماذا يفعل بها. هل يهجر الجزيرة كلها.. ما أقسى الزمن! يحيل الإنسان إلى لا شيء على حين كان كل شيء.

وظل ليذري في رقدته ما يقرب من الساعتين, وحوالي منتصف الليل نهض من مكانه واتجه إلى النافذة ورأى شيئًا غير معتاد في الميناء وفرك عينيه جيدًا وكأنه يؤكد لنفسه أنه ليس في حلم وحملق أمامه.

لقد رأى أمامه زورق جيليات راسيًا في الميناء وفوقه ماكينة درناد.

وأسرع بكل ما ملك من قوة وفي يده مصباح إلى الميناء متخطيًا سور المنزل ورأى الزورق ولم يكن عليه أحد.. وقفز إلى سطح الزورق وراح يتجسس الماكينة بجنون ويقبلها كما يقبل الأب ابنه العائد من الحرب بعد أن فقد الأمل في رجوعه ودموعه تسيل على خديه ساخنة دون أن يقصد البكاء.

لقد كانت الماكينة كاملة.. لم ينقص منها مسمار واحدًا. وكاد عقله يطير من الفرح.

وبدت منه ضحكة هيستيرية جلجلت في ذلك الجو الساكن ثم لمح جرس الميناء معلقًا على بعد غير قليل منه, فقفز إليه وأخذ بدقة بعنف.

# الفصل الثاني

كانت رحلة العودة سهلة بالنسبة لجيليات, فلم يحدث منها ما يعكر صفوها ووصل إلى الميناء حوالي العاشرة مساء وليس هناك أحد من الناس. وهو أمر طبيعي في تلك الساعة من الليل.

وكان القمر ساطعًا فساعد نوره جيليات أن يتحسس طريقه في الميناء جيدا, وقاد زورقه بهدوء إلى مرسى درناد أمام منزل ليذري وربط سلسلة الزورق في الحلقة المثبتة بجدار الميناء وخطا إلى الشاطئ.

واستدار مع الشارع الذي يقع فيه منزل ليذري ثم إلى اليمين مع سور حديقة المنزل ولم ينظر إلى الطريق المؤدي إلى منزله هو وذهب إلى مكانه القديم خلف الشجرة, الذي اعتاد كثيرًا أن يجلس فيه ليرقب نافذة ديروشيت التي تطل على الحديقة وليرى ديروشيت نفسها إذا ما خرجت لتسقي الأزهار أو لتنسقها.

وفي الربيع يزهر الشجر وتتفتح الورود ويملأ الدنيا عبير رطب ينعش وها هو ذا الحجر الذي اعتاد أن يجلس عليه. إن مكانه لم يتغير, بل لم يتغير أي شيء من معالم المكان.. وقبع جيليات فوق الحجر.. كالغريب الذي وجد مستقرًا أو كالحيوان الذي يعود إلى حظيرته.

هنا مكان جيليات.. كم قضى من الساعات ينظر خلال الكوة المطلة على الحديقة ينتظر خروج الغالية!

ساعات كان يقضيها كل يوم.. دون ملل لمجرد أن يسمع حفيف ثوبها, أو رنة صوتها أو يرى تورد وجهها.

وجلس جيليات في هدوء حابسًا أنفاسه من التردد بصوت مسموع, حتى لا يكشف أحد أمر وجوده, ونظر إلى نافذة حجرتها, لا شك أنها مستغرقة في النوم الآن, وسرح بخياله داخل الحجرة, على فراشها وهي نائمة كملك نوراني, وصدرها يعلو ويهبط في انتظام ورتابة مع تردد أنفاسها العطرة.

إنها هي.. هي بطهارتها الملائكية.. التي لم تفارق خياله ليلًا أو نهارًا. كم فكر في تلك المخلوقة كشيء بعيد المنال.. كم فكر فيها كثيرًا.. كملك.. وسرح خياله في تفاصيل حجرتها: السرير, لوحة جميلة معلقة على الحائط, "شماعة" عليها "روب" وردي جميل.. جواربها على المنضدة لترتديها عقب الاستيقاظ مباشرة, ومنديل يدها وقد سقط منها بجوار السرير.

ونظر إلى السماء وتعلقت عيناه بالنجوم.

واستيقظ من أحلامه فجأة عندما لمح في الحديقة وجه الحبيبة الغالية التي كان يظنها مستغرقة في النوم وأحس أن قواه ستخور، وأنه سيفقد الوعي.. إنها تقترب منه ولكنها توقفت واستدارت وسارت بضع خطوات، ثم استدارت مرة ثانية وكانت تروح وتجيء وبعد بضع دقائق ذهبت إلى مقعد تحت خميلة وجلست عليه.

كان القمر ساطعًا يكسو المكان بنوره الفضي، وموج البحر يرسل نغمًا خفيًا يناسب تلك الساعة من الليل وذلك الجو الشاعري الأخاذ، والمدينة كانت نائمة وها هو ذا جيليات يرى عذراءه المقدسة أمامه في الحديقة على بعد خطوات منه حتى أنه ليكاد يسمع صدى أنفاسها، وكان هناك كروان يطير في السماء يغرد، وكأن تغريده مع تردد أنفاس ديروشيت سيمفونية جميلة.

ديروشيت! ما أبهاها. جميلة نورانية يبدو منها نور قدسي يبدد الظلمة التي حولها. وكانت التجربة أكبر من أن يتحملها جيليات.. طالما تخيلها، لا أن يراها شخصيًا هكذا بالقرب منه. أن يرى حذاءها، قبعتها، وجهها، شعرها، هل هو في حلم؟ هل تخيل ضمن ما تخيل، أن يحدث ذلك؟ أن يراها هكذا بالقرب منه، حتى أنه يسمع تردد أنفاسها، ما أتعسه وما أسعده في الوقت نفسه.

ولم يدر ماذا يصنع، هل يقف هكذا يرقبها - وهي لا تراه - ينظر رقبتها العاجية، ووجهها المضيء، وشعرها الذي يشبه أستار الجنة!

هل سيصبح كل هذا ملك يديه غدًا مثلًا؟ أليس هذا وعدها ووعد ليذري؟ هل سيصبح من حقه أن يمد يده.. ليفك رباط قبعتها ويتلمس بأصابعه ذلك الشعر المنساب ويمر براحته على هذا الوجه المضيء.

إنه يشعر في قرارة نفسه بالذنب لمجرد التفكير في هذا. هل يستطيع آدمي أن يلمس مَلَكًا.. ما أشد ارتباكك يا جيليات! وما أقسى حيرتك الآن!

ولم يفكر جيليات في أن يخترق سور الحديقة ويقابل ديروشيت ليتحدث إليها، فلم يكن يطمع في أكثر من أن يراها. مجرد رؤية.. فهذا هو كل مناه.. وكل مبتغاه.

وكسر سكون الليل صوت خطوات ايقظت كليهما من تأملاته، أقدام كانت تسير في الحديقة متجهة إلى ديروشيت ولم يتبين جيليات صاحب هذه الخطوات وعندما وصل صاحب

الخطوات إلى ديروشيت توقف في ظل شجرة حجبته عن جيليات فلم يستطع أن يتعرف عليه.

وتطلع جيليات إلى ديروشيت التي ارتسم على وجهها رد فعل حضور هذا الشبح إذ ارتفع وجهها وانفرجت شفتاها كأنما تهم بالصياح وحاولت النهوض من جلستها ولكن أعصابها خانتها فألقت بنفسها مرة ثانية فوق المقعد. كانت تعابير وجهها توحي بأنها تريد الفرار، ولكنه ليس فرار المستغيث الفزع، بل هو وقع المفاجأة مضافًا إليه الخجل.. ثم ابتسمت ولمعت عيناها في خشوع، كان الواقف أمامها لا يمت إلى الأرض بصلة، بل ملك من السماء..

تكلم القادم الذي لم يتبين جيليات منه غير ظله وكان صوته رقيقًا عميقًا، وقال:

- إني أراك يا آنسة كل أحد وكل خميس. لقد أخبرني البعض أنك لم تكوني معتادة التردد من قبل.. أستمحيك عذرًا لأني أوجه إليك تلك الملاحظة التي سمعتها من الناس، لم أتحدث إليك من قبل لأن هذا كان واجبي وأنا أتحدث إليك الآن لأن هذا ضروري لي.

لقد وجدت أنه من الصواب أن أتحدث إليك أولًا، فالسفينة كاشمير سوف تقلع غدًا، ولهذا فقد كنت مضطرًا لمقابلتك الآن وأتيت لمقابلتك هنا لأني أعلم أنك تخرجين كثيرًا في المساء وتجلسين في الحديقة.. وأرجو أن تسامحيني لأني عرفت الكثير مما اعتدت بدون إذنك. آنسة ديروشيت أنت فقيرة الآن، وأنا أصبحت غنيًا منذ هذا الصباح، فهل تقبلين أن تتزوجيني؟

نظرت ديروشيت إلى محدثها في خشوع وأطبقت عينيها وهي في شبه نشوة على حين استمر صاحب الصوت يقول:

- إني أحبك. والله لا يحب لعبده أن يكتم ما في قلبه. ولقد أراد لنا البقاء في الدنيا طالما لا نعيش وحدنا. وهناك في هذه الدنيا كلها امرأة واحدة تصلح لي.. وهذه المرأة هي أنت. أنا أفكر فيك كما أفكر في صلاتي، فأنا أؤمن بالله وأفكر فيك، أنت حياتي وسعادتي الغالية.

وقالت ديروشيت:

- سيدي. لا أحد في المنزل ليجيب.

وقال الرجل:

- أنا أعلم أني أحلم، والله لم ينهنا عن الأحلام، أنت أمام ناظري كملك من السماء.. أنا أحبك يا آنسة، أحبك بكل عمق. أنت بالنسبة لي طهر مجسد، وبراءة في هيئة آدمية، أنا أعلم أن أهل منزلك الآن نيام ولكن لم يكن أمامي حرية الاختيار وقت آخر للحضور. لقد أخبرني الناس أني يجب أن أتزوج امرأة غنية وقلت أنا لا بل امرأة فقيرة.. أنا أقول لك هذا يا آنسة وأنا أبعد عنك

خطوات، وعلى استعداد لأن أرجع لو طلبت مني ذلك. فمشيئتك قانون بالنسبة لي، وسوف تأتين إلي إذا كانت هذه هي مشيئتك أما أنا فاصبر وانتظر.

وقالت ديروشيت:

- سيدي، لم يدر بخلدي قط أنك لاحظت وجودي أيام الآحاد والخميس.

وقال الرجل:

- إن الحب هو الحياة.. ولا سبيل إلى الحياة بدونك، أنت بالنسبة لي الجنة الموعودة..

وأجابت ديروشيت:

أنا لا اقصد ترددي في أي خطأ.

وقال الرجل:

- إن الحب شيء إلهي، ليس لنا حيلة فيه، ما أجملك في هذا الجو الليلي الساكن!

لطالما رعيت ورد هذه الحديقة في يديك، ولذلك فعبيرها يحمل بعضًا من شذاك. لقد رايتك أيام الآحاد والخميس، وكانت عيناي تقعان عليك، ولم يكن لي حيلة في ذلك، لأنه لم يكن في مقدوري أن أمنعهما، لقد كنت أشبه بمغناطيس يجذب الأبصار إليه.. وخلال نظراتي إليك أحببتك ونبض قلبي باسمك، ونبض القلب لا حيلة لنا فيه، إن أقصى أماني هو أن يشرفني وجودك في منزلي فهل تصبحين لي؟ عندما كنت فقيرًا لم أتكلم وأنا أعرف أن سنك 21 سنة وسني 26 سنة وسأرحل غدا. فإذا رفضت عرضي فلن أعود ثانية ولكني آمل أن توافقي. ولطالما تمنيت ذلك سأحدث عمك في الموضوع ولكني فضلت أن آخذ رأيك أولًا. لأني أحبك أنت ولذلك فأنا أقدم إليك نفسي أولًا.. إلا إذا لم تحبيني.

وغمغمت ديروشيت وقالت بصوت منخفض:

- أنا أهيم بك.

وسمع جيليات هذه الكلمات على حين ظلت ديروشيت مطأطئة الرأس، كأنما لا ترغب أن يرى أحد وجهها فيفضح مكنون عواطفها.

ومرت فترة من الصمت وقال الرجل بعدها:

- يا آنسة.

**ولم تجب ديروشيت وعاد الرجل يقول:**

**- انك لم تردي.**

**وقالت ديروشيت:**

**- وماذا تريد أن أقول؟**

**وقال الرجل:**

- إني في انتظار إجابتك.

وقالت ديروشيت في استحياء:

- لقد عرف الله إجابتي.

وهنا تهدج الرجل وقال والرقة الممزوجة بالانفعال في كلماته..

- أنت حياتي، فتعالي إلي فلتشاهد السماء الزرقاء.. ونجومها المتلألئة نجوى روحينا، فتعال لتتشابك يدانا في رباط ابدي خالد.

ومشت ديروشيت في بطء وتشابكت يداهما واختفيا بعيدًا عن عيني جيليات. هناك لحظات نفقد فيها الإحساس بمرور الوقت. وهذان الحبيبان لم يكونا على علم بأن هناك ثالثًا يرقب مفاجأتهما، وظل مكانه بلا حراك. كم من الوقت انقضى وهو في تلك الوقفة لا أحد يعلم ولا هو نفسه يعلم، الله وحده يعلم.

وفجأة سمع صيحة آتية من بعيد ومع الصيحة نداء استغاثة ثم قرع أذنيه رنين جرس الميناء وهو يدوي بشدة وبعنف مستمر.

# الفصل الثالث

دق ليذري الجرس بعنف وجنون، ثم توقف فجأة عندما لمح شبحا آتيا نحوه وكان هذا الشبح هو جيليات.

وأسرع ليذري إليه وقذف بنفسه بين أحضانه وأمسك بيده ونظر في وجهه لحظات دون أن ينبس بكلمة.

لقد كان الموقف أكبر من أن تعبر عنه كلمات، وكان لسانه أعجز عن أن يعبر عن مكنون نفسه ولذا فقد سحب جيليات في هدوء إلى المنزل وأدخله حجرته ثم أغلق الباب خلفهما وجلس وأجلسه بجانبه، وقال له بصوت اختلطت فيه الدموع بالضحكات:

- آه يا ولدي! لقد أيقنت أنك أنت صانع المعجزة، احك لي.. قل لي ما حدث، أخبرني بما صنعت، لقد ذهبت عند الدوفرز، أليس كذلك؟ ثم.. ثم ماذا؟

لو وجد شخص مثلك منذ مائة سنة لظنه الناس ساحرًا، لقد صنعت شيئا خارقًا يا جيليات، لا صامولة ناقصة، لا مسمار، الماكينة سليمة وكاملة، لقد فحصتها جزءًا جزءًا وهأنتذا هنا مرة أخرى، لقد بحثت عنك في الزورق، ظننتك نائمًا هناك، لم أعثر عليك فقرعت الجرس كنت أريد أن أراك. قلت لنفسي أين هو؟ لم يكن في وسعي الانتظار، يا لك من مخلوق رائع. إنك أعدتني مرة ثانية إلى الحياة، أنا أولد الآن بين يديك يا جيليات من جديد، أنت ملَك من السماء. نعم. نعم. ها هي ذي ماكينتي لن يصدق أحد ذلك، سوف يفغر الناس أفواههم في دهشة وذهول، الماكينة كاملة، لا ينقص أي مسمار فيها، لم يحصل لها أي عطب، كل ما تحتاج إليه هو قليل من الزيت ولكن كيف صنعت هذه المعجزة، سوف تبعث درناد إلى الحياة مرة ثانية. هل أنا في حلم؟ هل أنا مجنون؟

ثم قام من مكانه وتنهد تنهدًا حارًا واستمر في كلامه قائلًا:

- أنا لا أحلم، أنت ابني، أنت رجل شجاع، لقد ذهبت وخاطرت وأحضرت ماكينتي سالمة من عرض البحر، ومن فوق تلك الصخرة الرهيبة، لقد مررت بتجارب عدة، وسمعت عن أشياء غريبة، ولكن ما فعلته أنت اغرب من كل شيء، لقد أتيت بمعجزة حقيقية، كيف سيستقبل الناس هذا النبأ، سوف أبدأ حالًا في بناء سفينة جديدة، يا سكان جيورنسي كلها، إن هذا الرجل ذهب إلى صخور الدوفرز، لا تندهشوا، نعم صخور الدوفرز نفسها ذهب إليها وحيدًا، هل هناك أردأ من هذا المكان؟ هل علمت أن كلوبين قد أغرق السفينة عن عمد وأنه قد أخذ

نقودي من دانتين.. وأنه أسكر تانجورويل, إنها حكاية طويلة سوف أقصها عليك يومًا, أنا كنت مغفلًا عندما وثقت بكلوبين, ولكنه وقع في المصيدة وقع في الفخ الذي نصبه لنفسه, هناك إله في السماء يا ولدي سوف نبدأ ببناء درناد مرة ثانية يا جيليات, سوف نجعل طولها أكثر عشرين قدمًا من درناد القديمة, سأشتري الخشب اللازم من برمن, عندي الماكينة الآن وسوف يضمنونني ويعطونني الخشب على الحساب, ولكن يلزم لي بعض المال.. آه لو كان معي بعض المال! آه لو كان معي الخمس والسبعون ألف فرنك التي أخذها كلوبين من رانتين! وبمنتهى الهدوء تحسس جيليات جيبه وأخرج شيئًا وضعه في صمت على المنضدة أمام ليذري, وكان هذا الشيء هو بقايا حزام كلوبين وبه العلبة الحديدية الصغيرة التي تحتوي على النقود!

مد ليذري يده إلى العلبة وفتحها, وأخرج منها الأوراق المالية وهو فيما يشبه الذهول, وقرأ اسم كلوبين على الحزام, وأدرك توًا مصدر النقود وصاح في جيليات:

- والنقود أيضًا, يا لك من رائع نقودي.. كلها ثلاثة آلاف جنيه إسترليني! هذا حزام كلوبين.. هل تعقبته إلى الجحيم؟ لقد أحضر جيليات الماكينة والنقود أيضًا, أخبار تستحق النشر في الصحف سأشتري خشبًا من أحسن الأنواع, خشب البلوط من برمن, خشب البلوط هو أحسن أنواع الخشب لبناء السفن, إنه لا يتأثر كثيرًا بالماء وخصوصًا إذا كان مدهونًا بالقار. أنت معجزة يا بني كيف عثرت على النقود؟ إيه.. سوف تكون درناد الجديدة رائعة.. أروع من السابقة, هل يوجد مثيل لجيليات في الوجود؟ لقد كنت محطمًا, شبه ميت, وها هو ذا يبعث في الحياة من جديد, وأنا الذي لم أفكر فيه لحظة منذ خرج في بعثته المميتة.

لأني لم أكن أثق بعودته, وها هو ذا يعود, يا للفتى المسكين! اسمع يا جيليات, أنت تعرف أنك ستتزوج ديروشيت.

وكان جيليات طوال هذا الوقت يجلس أمامه ساكنًا لا ينم وجهه عن أي انفعال, وعند الجملة الأخيرة قال في صوت منخفض:

- لا.

وأفزعت ليذري الإجابة وقال في جذع:

- كيف تقول لا؟

وأجاب جيليات في هدوء.

- لأني لا أحبها.

**ونهض ليذري من مكانه في عصبية واتجه ناحية النافذة ثم عاد، ثم أمسك الورقات الثلاث، ثم وضعها في مكانها وقال:**

**- لابد أنك جننت.**

**ثم اقترب من جيليات أكثر ولوح بيده أمام وجهه بعصبية وقال:**

**- أنت لا تحب ديروشيت.. هه. هل أصدق هذا الكلام؟ ولمن إذا كنت تعزف الموسيقى كل ليلة والناس نيام؟**

واستحال لون جيليات إلى صفرة تشبه صفرة الموت.. على حين أحال الغضب وجه ليذري إلى حمرة ثانية وقال ليذري:

- يا لك من أحمق. أنت لا تحب ديروشيت. حسنًا. لكن لابد أن تحبها لأنها لن تتزوج أحدًا سواك. ويجب أن تعلم أني لا أصدقك. يحسن بك أن تذهب إلى الطبيب بدلًا من أن تقول هذا الهراء. قل لي يا بني واصدقني القول، ما هي أسباب قولك هذا. لابد أن هناك سببًا.

لكن.. لا. سوف تتزوجها.

وقال جيليات:

- لقد قلت لا..

- أنت قلت لا؟ وتؤكدها. يا مجنون.

ألا تحب ديروشيت؟ هل جازفت بتلك المخاطرة كلها من أجلي أنا؟ هل ذهبت إلى الدوفرز من أجل ليذري العجوز، متحملًا كل ذلك المطر والبرودة والعواصف والأنواء إلى أن أحضرت الماكينة كم آذيتني بموسيقاك كل ليلة.. كنت أتضايق منها كثيرًا.. ثم هأنتذا تقول: إنك لا تحب ديروشيت..

لابد أن بك شيئًا. أنا أذكر كل شيء الآن قالت ديروشيت: من يحضر الماكينة سأتزوجه، ولذلك ستصبح زوجها.. وأنت لا تحبها، إما أن تكون مجنونًا أو أكون أنا المجنون، إنك لم تسد إلينا هذا المعروف لمجرد أن تقول لك "شكرًا" إذا لم تتزوجها يا جيليات فستظل طوال عمرها بدون زواج، يجب أن تعرف أولًا وقبل كل شيء أني في حاجة إليك، يجبَ أن تتولى قيادة درناد الجديدة، هل تتصور أننا سنفترق؟ لا يا ولدي الشجاع، إني قد عثرت عليك، ولن أدعك تفلت من يدي.. لن استمع إلى ما تقول. أين أجد بحارًا ماهرًا مثلك؟ أنت رجلي الذي أريده، لكن لماذا أنت

صامت هكذا ولا تتكلم؟

وكان أهل المنزل وبعض الجيران في أثناء ذلك قد استيقظوا. أيقظهم رنين الجرس، فدخل دوس وجريس الحجرة وفي يد أحدهما شمعة مضيئة ووقفا صامتين على حين تجمع بعض الناس - في الميناء وحول الزورق والماكينة وقد عقدت الدهشة ألسنتهم.. وسمع بعضهم صوت ليذري فتدفقوا إلى ساحة المنزل..

وبعض الناس تزداد سعادتهم عندما يرون الآخرين حولهم يشاركوهم في تلك السعادة. ولذلك انشرح قلب ليذري عندما رأى الناس يلتفون حوله ونظر إليهم مرحبًا قائلًا:

- مرحبًا بكم أيها الأصدقاء، أنا سعيد جدات لرؤيتكم الآن، هل عرفتم آخر الأنباء؟

لقد ذهب هذا الرجل إلى هناك.. وأحضر الماكينة. كيف حالك يا لاندويز؟ لقد رأيتها من النافذة ولا مسمار ناقص.. لقد استيقظتم من نومكم أيها الأصدقاء، بينما كنا نغط في النوم هنا، كان هناك آخرون يشتغلون في بطولة خارقة في عرض البحر. نحن جبناء نتكلم فقط. ولكن جيليات أتى من الدوفرز.. بعد أن اصطاد الماكينة من عرض البحر تمامًا كما يصطاد سمكة، وأكثر من ذلك إنه أحضر لي نقودي من كلوبين، لكن كيف فعلت لك يا جيليات؟ لقد تجمعت ضدك كل قوى الظلام: الريح والحر، والبحر..، إنك ساحر ولا شك. ها قد بعثت درناد إلى الحياة. سأعيد بناءها من جديد. أيها الأصدقاء أستطيع أن أقول لكم إنه لم تعد هناك كارثة على الإطلاق.

الماكينة سليمة وجديدة الصمامات تعمل بانتظام حتى لكأن المرء يظن أنها صنعت ليلة أمس فقط.. يا له من شجاع.. سيتزوجها.

تساءل لاندويز ببلاهة:

- سيتزوج الماكينة؟

أجاب ليذري:

- سيتزوج الفتاة ديروشيت، نعم، وسيكون صهري. سيكون ربان السفينة الجديدة. طاب يومك يا كابتن جيليات. سوف تكون السفينة الجديدة رائعة تستطيع حمل المسافرين والحيوانات وهاهو ذا صانع هذه المعجزة، إنها مغامرة غريبة، سوف تُنشر في الصحيفة بالتأكيد.

سادت فترة قصيرة من الصمت.. وكان ليذري مصممًا على أن يفرغ كل ما عنده من كلام، فاستمر في حديثه قائلًا:

- سأشتري كمية كبيرة من خشب البلوط لكي أبني بها السفينة. هل تذكرون تلك العاصفة المدمرة التي مررنا بها منذ ثلاثة أيام؟ لقد تحمل جيليات أهوالها وحيدًا على صخور الدوفرز. إنه رجل ذو عقل كبير، نحن أطفال بالنسبة له. إذا كنا نظن أنفسنا ذئاب البحر فهو ولا شك أسد البحر.

المجد لجيليات.. لا بد أنه صانع معجز.. ولا أستطيع أن أكافئه إلا بتزويجه ديروشيت.

كانت ديروشيت قد دخلت الحجرة منذ دقائق ووقفت صامتة وسط الجمع المتجمهر حول ليذري وجيليات.

ثم بعد دقائق أخرى دخل رجل آخر متشح بالسواد يلبس رباط عنق أبيض وفوق رأسه قلنسوة سوداء ووقف على عتبة الباب. كان هو السيد كودري مسجل الإبراشية وراعيها، الرجل الذي أصبح غنيًا بعد فقر، أفسح الناس له الطريق ليدخل الغرفة، لكنه ابتسم لهم في حنان وفضّل أن يظل واقفًا في مكانه.

لمح ليذري ديروشيت، ولكنه لم ينتبه إلى وجود كودري، فخطا إلى حيث كانت واقفة، وقبلها فوق جبينها وأشار إلى جيليات قائلًا:

- لقد صرنا أغنياء مرة أخرى يا ديروشيت، وها هو ذا زوجك.

رفعت ديروشيت رأسها من إعياء في حين استمر ليذري يقول:

- سوف يتم الزواج قريبًا جدًا، غدًا لو أمكن ذلك. سوف تأخذين تصريحًا خاصًا. إن أسقف الكنيسة هنا رجل ذو عقل راجح ولا يتقيد كثيرًا بالخطوات الروتينية في مثل هذة الموضوعات. سوف تكونين جد فخورة بأنك زوجة رجل شجاع. الزواج هنا سهل، ليس كما هو في فرنسا، حيث الإجراءات طويلة ومعقدة، لقد كان رأيي في جيليات صائبًا منذ البداية، منذ أن فاز في السباق. لقد وعدته أن تتزوجيه يا ديروشيت، وعليك الآن تنفيذ هذا الوعد. سوف يكون لك أطفال صغار وسوف ينادونني "يا جدي"، إن زوجك رجل نبيل، نافع لنفسه ولغيره من الناس. رجل يهب حياته لخدمة الآخرين.

رجل يساوى مائة رجل. لن يكون مصيرك مثل مصير بقية الفتيات هنا، حيث يتزوجن بحارين. إن زوجك بطل.

كان جيليات يقف في ركن الحجرة حيث لا يصل إليه شعاع شمعة ديوس. ولذا فقد وجه إليه ليذري الكلام قائلًا:

- أين أنت يا جيليات؟ تقدم قليلًا حتى يستطيع كل من هنا أن يراك.. جريس, احضر شمعة أخرى.. احضر مصباحًا حتى يرى الناس صهري البطل. إني أزوجك يا جيليات ديروشيت ولن أرضى بغيرك لها. لن تتزوجي غيره أبدًا. أقسم باسم الله على ذلك.

لمح ليذري السيد كودري واقفًا على عتبة الباب فقال له:

- آه هأنتذا هنا يا سيدي راعي الأبرشية.. زوج هذين أمامي.

ألقى جيليات نظرة على كودري.. وأحضر ديوس شمعة أخرى.. وعم الضوء أرجاء الحجرة. ورأى الناس جيليات.

كان كما أبحر صباح ذلك اليوم من الدوفرز. تبدو لحيته الطويلة المشعثة, وشعره المرسل وملابسه القذرة ممزقة ويداه اللتان انتشرت عليهما الجروح والبثور, وبشرته التي قد اكتست بلون الصدأ نتيجة الهواء ومياه البحر المالحة, وقدماه العاريتان.. ورغم ذلك فقد كان ليذري ينظر إليه في إكبار قائلًا:

- ها هو ذا صهري .. جيليات. انظروا إلى علامات النضال على جسمه. انظروا كيف كافح كي يحضر ماكينة السفينة.. ها هو ذا زوجك يا ديروشيت.

نظرت إليه ديروشيت ... ثم سقطت مغشيًا عليها.

# الفصل الرابع

انبلج نور الصباح. ومع أشعة الشمس استيقظ سكان سانت سامبسون وأحدثت عودة ماكينة درناد بينهم ما تحدث المعجزة وسط قوم بسطاء العقول. وتجمهر حشد كبير من في الميناء يشاهدون الزورق وعليه الماكينة, أراد بعضهم أن يتحسسها بيديه, ولكن ليذري الذي قام بفحصها بدقة مرة أخرى في ضوء النهار, خصص لها حارسين من البحارة ومعهم تعليمات مشددة بمنع أي شخص من الاقتراب منها, وكان اسم جيليات يتردد بين حديث الناس بكثرة وأخذ البعض يذكره بإعجاب والبعض الآخر يحسده, ولكن أحدًا لم ينكر إعجاز العمل الذي قام به ذلك الرجل وحده.

جلس ليذري في حجرته أمام النافذة وأمامه منضدة عليها بعض الأوراق, بدأ يكتب وأحدى عينيه مركزة على ما يكتب والعين الأخرى لا تفارق الزورق.

- لقد استيقظت الآنسة ديروشيت منذ فترة وخرجت لتستنشق بعض الهواء.

عقب ليذري قائلًا:

- حسنًا فعلت, فبعض الهواء النقي ينعشها. إن الحر وكثرة التنفس في الحجرة أمس أرهقاها, بالإضافة إلى وقع المفاجأة. سوف يكون جيليات زوجًا لها تتيه به فخرًا.

ثم استأنف الكتابة وكان قد أتم كتابة رسالتين.

وها هو ذا قد انتهي من كتابة رسالة ثالثة. ثم وضع كل منها في غلاف. والعنوان باسم أشهر بيوت بناء السفن في برمن.

لمح ليذري صبيًا صغيرًا يدفع عربة يد عليها حقيبة جلدية كبيرة, آتيًا من المنزل المؤدي إلى منزل جيليات ومتجهًا إلى الميناء.

سأله ليذري وهو جالس في غرفته أمام النافذة:

- إلى أين أنت ذاهب يا صبي؟

توقف الصبي وأجاب:

- إلى السفينة "كاشمير".

- لماذا؟

- لأنقل لها تلك الحقيبة.

- حسنًا. خذ إذن تلك الرسائل الثلاث معك, وقل لقائد السفينة أنها رسائلي لكي يعنى بها, العنوان مكتوب. برمن عن طريق لندن.

أجاب الصبي:

- ولكني لا أستطيع محادثة الكابتن.

- لماذا؟

- إن السفينة ليست راسية على الميناء تمامًا ولكنها تقف داخل البحر.

ثم قال الصبي:

- لكنني أستطيع أن أتحدث مع البحار الذي يأخذ الأشياء ليوصلها إلى السفينة.

- أخبره إذن أن يهتم بالرسائل.

- حسنًا سيد ليذري.

- ومتى ستبحر السفينة كاشمير؟

- في الثانية عشرة.

- عندما يبدأ المد في الارتفاع.

- نعم, ولكن الريح مناسبة.

وضع الصبي الرسائل في أحد جيوبه ودفع العربة أمامه واستمر في سيره تجاه الميناء.

ثم أرسل ليذري رسالة إلى جيليات كتب فيها:

"لقد أرسلت إلى برمن بشأن الخشب وارتبطت بمواعيد مع النجارين طوال الصباح, وكما تعلم لي رغبة في أن يبدأ العمل في بناء السفينة بأقصى سرعة ممكنة. ولهذا أطلب منك أن تذهب أنت بنفسك إلى الإبراشية لاستخراج ترخيص الزواج. أنا متشوق لأن يتم الزواج في أقرب وقت, ولأنني مشغول بموضوع درناد, أرجو أن تشغل نفسك بموضوع ديروشيت..."

# الفصل الخامس

غطت أنباء عودة زورق جيليات وعليه ماكينة درناد كاملة على كل ما عداها من أنباء في سانت سامبسون, فلم يعد أحد يتناقل أخبار السيد المحترم كودري راعي الكنيسة, ولا ثروته التي هبطت عليه فجأة, ولا اعتزامه الرحيل ظهر هذا اليوم على متن الباخرة كاشمير, وأسرع الكثير من الناس إلى الميناء ليتيقنوا بأعينهم من المعجزة, فقد كانت شيئًا أكبر من أن يستوعبه منطقهم البسيط, وتوقفت أعمال كثيرة, وتدفق الناس رجالًا ونساءً, شيوخًا وأطفالًا, كلٌ يبغي أن يمتع عينيه بما يستحق الرؤية فعلًا.

دقت الساعة العاشرة, في الصباح, وتزايد عدد الناس المتجمعين لمشاهدة معجزة جيليات, على حين أصبح الجزء البعيد من الميناء خاليًا تمامًا من البشر.

وكانت السفينة كاشمير واقفة على بعد في عرض البحر, في حين كان أحد بحارتها ينقل البضائع بأحد القوارب, ثم عاد القارب لينتظر في الميناء كأنه ينتظر أحدًا لينقله إلى ظهر السفينة.

ولو أن أحدًا مر بمنطقة الصخور التي في طرف الميناء على بعد من القارب المنتظر لسمع صوتًا هامسًا يشي بوجود رجل وامرأة يتحدثان. بحيث يصعب على بحار القارب رؤيتهما, كان الرجل هو كودري والمرأة هي ديروشيت.



وقف كودري وديروشيت في ذلك المكان المنعزل وجهًا لوجه وقد تشابكت إيديهما والتقت نظراتهما, وكانت ديروشيت تتكلم على حين وقف كودري صامتًا مصغيًا, وقد ترقرقت على طرف عينيه دمعة أبلغ من الكلام.

كان الحزن والعاطفة المكبوتة قد طبعا أثريهما على وجهه.. إنه الآن تحت رحمة القدر, ولا شيء يقلق ضمير القس إلا أن يثقل المجهول كاهله..

إن الحياة سلسلة من المصائب, كتب علينا أن نقاسيها الواحدة تلو الأخرى, ونحن لا ندري من أي اتجاه ستأتينا.

كان كودري رجل دين, ولكنه ذو قلب لم يقف الإيمان بينه وبين أن يحب, طالما أنه أحب بطهر وتعفف. ونظر طويلًا إلى عيني ديروشيت.

إن هذين المخلوقين يهيمان في الحب, لدرجة تصل إلى حد التقديس.

قالت ديروشيت:

- يجب أن تتركني فأنا لا أحتمل ذلك. لقد ظننت أني أستطيع أن أودعك ولكني كنت مخطئة.. لم أتيت إليّ ليلة أمس؟ كان يجب ألا تأتي طالما كنت تعد للرحيل السريع هكذا. إني لم أتحدث إليك أبدًا، ولكنني أحببتك عن بعد، وفي صمت، ولم أكن أعلم أني أحبك، لأنني أحببتك بكياني.

التقت عينانا وتضرجت وجنتاي من حمرة الخجل. لقد سرقني حبك، كنت أذهب إلى الكنيسة، وكنت معجبة بك، ولقد ظننت أن هذا هو شعور كل من يتردد على الكنيسة، وأنت من جانبك لم تفعل شيئًا غير معتاد لتجذب نظري إليك أو تجعلني أحبك، أنت طاهر، ومن لا يحب الطهر؟ أنت ملَك. ومن يتردد في الإعجاب بالملائكة؟ إنك أنت الذي ساعدت الإيمان أن يتغلغل في قلبي، تعلمت الصلاة وتعودتها، وآمنت بها من أجلك أولًا، ثم من أجل الإيمان ثانيًا.. إن رحيلك كان سيتركني حزينة لو لم تحادثني مساء أمس، أما الآن.. فإن رحيلك يعني الموت بالنسبة لي. إنا أحبك فلا تتركني.. لماذا أنت صامت هكذا؟ تسمعني؟

أجاب كودري:

- هل سمعت ما قيل بالأمس؟

سادت فترة من الصمت قطعها كودري قائلًا:

- إن الرحيل هو كل ما يمكنني أن أفعله في هذه الظروف.

قالت ديروشيت في جزع:

- وأنا... هل تتركني أموت؟ يا إلهي! كم أتمنى أن ينمحي البحر من الوجود وأن تكون الدنيا كلها سموات.. كان من الخطأ أن تتحدث إليّ أمس. لم فعلت ذلك؟.. لقد أظهرت الحب الذي طالما كان في كامنًا في داخلي فسيطر على كل وجودي.. أنت سترحل وأنا سأموت، ستكون بعيدًا عندما أرقد في قبري، كم أنا مسكينة! إن عمي ظالم.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشير فيها ديروشيت إلى ليذري بكلمة عمي بدلًا من والدي.

قال كودري:

- يجب أن أرحل الآن.

صاحت ديروشيت في ألم مكتوم:

- لا ... لا.

رد كودري في إصرار:

- ليس أمامنا إلا هذا.

- لا.. ليس من أجل ماكينة سفينة. هل رأيت منظر ذلك الرجل مساء أمس؟ هل تتركني له؟ أنت عاقل وستجد مخرجًا من هذا الموقف بدلًا من أن تتركني هكذا. هل طلبت مني أن أحضر الآن لتقول لي وداعًا؟ لن أتركك ترحل على تلك السفينة. لن تتركني ولن أتركك.. فكلانا يحب الآخر.

اقتربت منه وعانقته، لفت ذراعيها حول رقبته، لتؤكد لنفسها أنها بالقرب منه، وأنه لن يتركها ويبحر إلى المجهول.

لكنه تخلص من عناقها، وأزاحها بعيدًا عنه في حزم وفي غير قسوة.

جلست ديروشيت على الصخرة في يأس مرير كالمحكوم عليه بالإعدام الذي ينتظر تنفيذ الحكم، وأمسك كودري رأسها في حنان وكانت في داخله معركة.. لولا إيمانه ومبادئه لانهال عليها تقبيلًا، ولأمسك سلاحًا ووقف أمامها ليقتل كل من يحاول أن يأخذها بعيدًا عنه، ولكنه رجل دين، رجل فضيلة، منطقه دائمًا فوق حكم قلبه، لذا ارتجفت شفتاه وهو يقول لها: "وداعًا يا ديروشيت" وكانت هذه الكلمات كالخنجر المسموم والذي غرز في قلب الحبيبة المعذبة، فشهقت في ألم. وفي تلك اللحظة سمعا من خلفهما صوتًا يقول في هدوء وصدق:

- لماذا لا تتزوجان؟

رفعت ديروشيت رأسها، وأدار كودري رأسه ليريا من المتكلم.

كان قد اقترب منهما من الجانب الأيسر دون أن يفطنا إليه.

كان هو جيليات.

ولم يكن على تلك الهيئة التي كان بها أمس، فقد مشط شعره وحلق ذقنه، ولبس حذاء وبنطلونًا أبيضًا وسترة زرقاء تشبه سترة البحار. كان يبدو هادئًا وإن بدت على وجهه بعض الصفرة. نظرا إليه في دهشة وقد تعرفت عليه ديروشيت بالرغم من الاختلاف الشديد بين شكله بالأمس واليوم.

واستمر جيليات في الحديث قائلًا:

- لماذا تقول وداعًا؟ فلتتزوجا وترحلا معًا.

اهتزت ديروشيت من المفاجأة. على حين لم ينبس كودري ببنت شفة.

قال جيليات:

- إن الآنسة ديروشيت قد بلغت سن الرشد, ويمكنها أن تتزوج من تريد.. وعمها لا يستطيع أن يفرض عليها زوجًا وأنتما حبيبان.

قاطعته ديروشيت في تساؤل رقيق:

- كيف أتيت إلى هنا؟

أجاب جيليات:

- يجب أن تتزوجا.

فهمت ديروشيت مقصده.. وتمتمت في صوت منخفض:

- يا لعمي المسكين.

على حين استمر جيليات قائلًا:

- إن عمك لن يوافق على زواجك مقدمًا.. ولكنه عندما يتم سيكون أمام الأمر الواقع. هذا إلى جانب أنكما سترحلان عن جيورنسي, وعندما تعودان سيكون قد نسي وسيغفر لكما. كما أنه لا يفكر في شيء الآن إلا في بناء السفينة...

قاطعته ديروشيت متظاهرة بالغضب الذي وشى بفرحتها لموقف جيليات:

- لا أستطيع.. لا أستطيع أن أجلب لعمي التعاسة.

أجاب جيليات في مرارة:

- سوف ينسى بسرعة.. إن عقله مشغول بالخشب والنجارين ودرناد والمستقبل...

كان كودري واقفًا في صمت يتأمل هذا المشهد المفاجئ الغريب.. وكان بينه وبين نفسه يميل إلى ما يقوله جيليات, والإنسان وقت الشدة يبحث حتى عن قشة يتعلق بها.

ازدادت لهجة جيليات حماسًا وهو يقول:

- لا تضيعا الوقت.. سوف تبحر السفينة كاشمير بعد ساعتين, هيا..

نظر إليه كودري ثم قال فجأة وقد تذكر:

**- تذكرت الآن.. لقد أنقذت حياتي في السابق.**

**تظاهر جيليات بأنه لا يعرف شيئًا عما يقصده كودري وقال:**

**- لا أظن..**

**قال كودري مؤكدًا:**

- هناك.. فوق الصخرة حيث غلبني النعاس.

- لا أعرف ماذا تقصد.

قال كودري:

- كان ذلك أول يوم وطئت فيه قدماي هذه الجزيرة.

رد جيليات مغيرًا مجرى الحديث:

- دعونا لا نضيع المزيد من الوقت.

لكن كودري كان مصممًا على أن يكشف شخصية محدثه:

- وإذا لم أكن مخطئًا، فأنت الرجل الذي رأيناه أمس.

- ربما..

- ما اسمك.

رفع جيليات صوته مناديًا البحار الذي كان يقف غير بعيد بقاربه انتظارًا لحمل الراكب إلى ظهر السفينة، صاح عليه بأعلى صوته:

- أيها البحار.. انتظرنا هنا، سنعود بعد قليل.

ثم وجه حديثه إلى ديروشيت قائلًا:

- وقد سألتني يا آنسة ديروشيت كيف أتيت إلى هنا، والإجابة ببساطة أنني قد تبعتك.. إن سنك احدى وعشرون سنة الآن وتستطيعين عندما تريدين .... هكذا تسمح قوانين البلاد فتعالي معي بسرعة..

نظر كودري إلى ديروشيت كأنما يستطلع رأيها، وهمست ديروشيت إليه قائلة:

- اسمه جيليات.

استعجله جيليات بقوله:

- قلت لكما اتبعاني بسرعة.

سأله كودري:

- إلى أين؟

أشار جيليات إلى الكنيسة قائلًا:

- إلى هناك..

سار جيليات وخلفه كودري وديروشيت وارتسمت على وجهيهما نشوة الحب، على حين جاهد جيليات ليخفي إحساس الألم الذي كان يمزقه من الداخل.

لم يتوجهوا إلى كنيسة سانت بيتر، بل إلى كنيسة صغيرة في طرف المدينة، وقد امتلأ قلب ديروشيت بنبض الحب وسرت في جوانحها أحاسيس السعادة، وأخذت تحلم بقرب تحقق الأمل، في حين كان كودري يفكر فيما هو مقدم عليه. إنه رجل مسئول، ومسئوليته تجعله يفكر مرات قبل أن يقدم على أي خطوة.. إن ديروشيت قد بلغت سنًا تستطيع أن تملي فيها إرادتها بشأن الزواج، ولكن هل سيقبل القسيس أن يتم هذا الزواج بدون أن يسأل عمها عن رأيه؟

لكن لا بأس، سيعرفون الجواب عما قريب، ولن يخسروا شيئًا من المحاولة.

ولكن.. من هو هذا الرجل الذي انشقت الأرض عنه وظهر للحبيبين وقد ضاقت بهما الدنيا ليفتح أمامهما أبواب الأمل؟ أليس هو الرجل الذي أعلن ليذري ليلة أمس أمام جموع الناس أنه سيتزوج ديروشيت؟ ما معنى كل هذا إذن؟ ما هو السبب في تصرفه هذا؟

لا بأس أيضًا، فالغريق يبحث دائمًا عن قشة يتعلق بها. ولذا فقد سار كودري خلف مرشده مستلمًا لتوجيهاته.

# الفصل السادس

دقت الساعة العاشرة عندما دخلوا من باب الكنيسة التي كانت خالية تمامًا. كان يقف أمام المذبح القس وكاتب الكنيسة وأحد الشمامسة, وكان القس هو السيد هيرود.. وهو على معرفة بكودري, كان ممسكًا في يده بإنجيل يقرأ بعض آياته, وعلى يمينه منضده فوقها كتاب آخر هو سجل الكنيسة.

حيا السيد هيرود كودري قائلًا:

- أهنئك يا زميلي العزيز تهنئة مزدوجة, لقد ورثت عمك وأصبحت غنيًا, كما أنك تنوي الزواج واستكمال سعادتك. وستصير الآنسة أيضًا غنية نتيجة إعادة بناء السفينة مرة ثانية.. حسنًا.. لقد كتبت البيانات اللازمة في السجل. والآنسة قد بلغت سن الرشد, وعمها موافق أيضًا. وها أنتما ذان في عجلة لإتمام مراسم الزواج لقرب رحيلكما, ونظرًا لزمالتنا يا سيد كودري, فسوف أسهل مراسم الزواج, لقد كتبت كل البيانات في السجل منذ الصباح.

تبادل كودري وديروشيت نظرات الدهشة في حين استمر السيد هيرود قائلًا:

- أخبرني جيليات في الصباح أن ليذري يوافق على إتمام هذا الزواج ونظرًا لأنه مشغول بالسفينة فلن يستطيع الحضور. ولكن بما أن هذه الرغبة قد وصلتني شفويًا, فإنها لا تكفي كما تعلم يا سيد كودري ولا يمكنني إتمام هذا الزواج إلا إذا اتصلت شخصيًا بالسيد ليذري, أو إذا قدم لي إقرارًا مكتوبًا وموقعًا بإمضائه متضمنًا رغبته في زواج ابنة أخيه ديروشيت.

وهنا تقدم جيليات إلى السيد هيرود وقال:

- لا تقلق نفسك يا سيدي.

ثم وضع يده في جيبه وأخرج ورقة وسلمها للسيد هيرود الذي تناولها وفضها ثم بدأ يقرأ بعضًا مما كتب فيها بصوت منخفض, ثم ارتفع صوته وهو يقرأ:

- اذهب إلى الإبراشية واستخرج تصريح الزواج فإني أنا متشوق لأن يتم الزواج في أقرب وقت.

وضع القس الورقة على المنضدة وقال:

- إنها تحمل توقيع ليذري. وكان من الأفضل أنه يتم توجيهها إليّ شخصيًا بدلًا من توجيهها إلى أحد غيري, ولكن لا بأس.. إني أرغب في إسداء خدمة إلى زميل, ولذلك فسأكتفي بهذا

الإقرار من ليذري.

نظر كودري إلى جيليات وشعر بأن هذا الرجل قد قام بدور ما.. ما هو دافعه؟ لقد رتب لكل شيء، وعمل حساب كل شيء حتى قبل أن يفاجئهما على الصخرة، أتى إلى القس وطلب تصريح زواج، أعطى بيانات.. ثم هذه الورقة التي أبرزها..

أمسك القس بالقلم وملأ بقية البيانات في السجل، ثم بدأت مراسم الزواج.

كانت لحظة غريبة.. وقف كودري وديروشيت متجاورين أمام القس في حين وقف جيليات على بعد قليل.. في ظل أحد أعمدة الكنيسة. كانت ديروشيت عندما استيقظت هذا الصباح يائسة لا تفكر إلا في الموت وفي رحيل كودري، وارتدت فستانًا أبيضًا، وها هو الفستان الأبيض قد جاء مناسبًا لحفل الزواج!! كم يتدخل القدر لا ليغير الشكل الخارجي للثوب، بل ليغير استجابة النفس لذلك الشكل الخارجي، هاهي تقف في ردائها الأبيض وقد أفعم وجهها الملائكي بالسعادة بعد أن انزاحت عن كاهلها كل أحاسيس اليأس والظلام -لم تكن في مثل جمالها الآن قط.. كانت كزنبقة بيضاء أو مَلَك جميل.

ها هي ذي دموعها قد جفت.. دموعها التي سكبتها حزنًا على فراق حبيبها، لتحل محلها ابتسامات السعادة وأمارات الفرح.

وضع القس يده فوق الكتاب المقدس وسألهما في صوت مملوء بالهيبة والخشوع.

هل هما على علم بأي عائق يقف في طريق زواجهما أو يجعل زواجهما غير شرعي؟

لم يجيبا على هذا السؤال. وتقدم كودري وديروشيت خطوتين. وقال القس موجهًا كلامه إلى كودري:

- جوزيف ابتر كودري.. هل ترضى بهذه المرأة أن تكون زوجًا لك؟

أجاب كودري:

- نعم..

ثم وجه القس كلامه إلى ديروشيت قائلًا:

- وأنت يا ديروشيت، هل تقبلينه زوجًا لك؟

قالت في صوت عذري فيه رقة وحياء:

- نعم.

تتابعت مراسم الزواج. ونظر القس إلى جيليات قائلًا:

- من يقدم الزوجة إلى زوجها؟

فخطا جيليات خطوتين وقال:

- أنا.

سادت لحظات من الصمت ووضع القس يد ديروشيت اليمنى في يمين كودري الذي ردد خلفه قائلًا:

- أنا أقبلك يا ديروشيت زوجة لي، على الخير والشر، على الغنى والفقر، على الصحة والمرض، يحب كل منا الآخر حتى يفرق بيننا الموت.

ثم رددت ديروشيت خلف القسيس:

- وأنا أقبلك زوجًا لي على الخير والشر، على الغنى والفقر، على الصحة والمرض، يحب كل منا الآخر حتى يفرق بيننا الموت.

وتساءل القس:

- أين الخاتم؟

أربكهما السؤال، فلم يكن مع كودري أي خاتم. ولكن جيليات تقدم وخلع من أصبعه خاتمًا ذهبيًا كان قد اشتراه لهذه المناسبة في الصباح قبل أن يتتبعهما إلى الصخرة.

تناول القس الخاتم ووضعه قليلًا فوق الإنجيل ثم رفعه وسلمه إلى كودري الذي أخذه وأمسك يد ديروشيت التي كانت تهتز بانفعالات السعادة وألبسها الخاتم قائلًا:

- بهذا الخاتم.. نرتبط معًا بالزواج.

تمتم القس:

- باسم الآب والابن والروح القدس.

ردد الشماس وكاتب الكنيسة قائلين:

- آمين.

ثم قال القس:

- فلنصل.

ركع كودري وديروشيت، وطأطأ جيليات رأسه وغرقوا في صلاة خاشعة.

# الفصل السابع

عندما غادروا الكنيسة كانت السفينة كاشمير مستعدة للإبحار، وسار الثلاثة إلى طرف الميناء، وقد تقدم كودري وديروشيت هذه المرة في حين تبعهما جيليات في سكون، كانت تنتابهما أحاسيس شتى.. ها هما ارتبطا معًا إلى الأبد.. ولكن إلى أين هما ذاهبان الآن.

وكان وقع خطوات جيليات يصل إلى مسامعها ويذكرهما بوجوده. كان قلباهما مفعمين بالسرور الغامض.

كم تغيرت احاسيس ديروشيت في الساعات الأخيرة.. لقد خفق قلبها عندما فاجأها كودري وهي في الحديقة مصرحًا لها بحبه. ثم أصابها الفزع عندما ذكرها عمها ووعده بتزويجها لذلك الإنسان الغريب الذي ما أن رأته عيناها حتى أصيبت بفقد الشعور.. ثم ملأ اليأس كل كيانها وأظلمت الدنيا أمامها ولم تعد ترى الا الموت الأسود عندما عرفت أن حبيبها سوف يرحل من الجزيرة تاركًا إياها لمصير مجهول.. وأخيرًا يتبدل الحال وتغسل السعادة كل آثار الشقاء وتتزوج من حبيب القلب وتوأم الروح!

وصلوا إلى القارب وقفز كودري إليه وقبل أن تخطو ديروشيت استوقفها جيليات وقال لها:

- سيدتي.. إنكما تبدأن الآن رحلة لم تقومي بالتجهيز لها، وقد وجدت انك ستحتاجين إلى بعض الملابس وأنت على ظهر السفينة. ولذا فسوف تجدين هناك حقيبة جلدية كبيرة مملوءة بملابس السيدات ورثتها عن والدتي وكنت محتفظًا بها لأهديها إلى عروسي ليلة زواجي، لو تزوجت! فاسمحي لي أن أهديها لك الآن.

نظرت ديروشيت إليه وقد مست قلبها كلماته على حين استمر جيليات يقول في صوت منخفض:

- أنا لا أبغي أن أؤخركما يا سيدي، ولكني فقط أود أن أشرح لك شيئًا يوم أن وصلتكم أنباء غرق درناد، كنت تجلسين في الغرفة الصغيرة وقلت حينئذ كلمات معينة ليس من الغريب أنك نسيتها الآن، فنحن لا يمكن أن نتذكر كل ما نقول من كلام. كان ليذري في ورطة لأن الخسارة كانت فادحة.

لن أطيل عليك فأنت تعرفين التفاصيل. لقد ذهبت لإنقاذ الماكينة لأن الجميع أجمعوا على استحالة إنقاذها وكان الدافع أيضًا شيء قديم..

منذ سنوات كنت أسير.. وكنت تسيرين أمامي. وكان الطريق مغطى بالثلج وفجأة انحنيت

وكتبت اسمي على الثلج.. ومرة أخرى نظرت إلي وخيل الى أنك منحتني نظرة صافية.. هذا هو كل مافي الأمر..

أما منظري بالأمس.. فلم يكن لدي وقت لأذهب إلى منزلي وأحلق ذقني وأمشط شعري وأرتدي ملابس نظيفة، لقد افزعك منظري فأغمى عليك، واللوم يقع عليّ، فما كان يجب أن أصدمك بمنظري هذا.. فسامحيني.. هذا هو كل ما أود أن أقوله لك قبل أن تبحري.. وداعًا. وأرجو ألا تلوميني على هذه الكلمات.

ثم أطرق.. فسألته ديروشيت:

- أنا أفكر في حقيبة الملابس التي أرسلتها إليّ على ظهر السفينة.. لماذ لم تحتفظ بها لزوجتك عندما تتزوج؟

أجاب وهو مطرق:

- إني لن أتزوج يا سيدتي.

ردت ديروشيت:

- سوف يكون هذا مؤسفًا.. فأنت شاب طيب..

- شكرًا..

وفي أقل من ربع ساعة كان كودري وديروشيت قد وصلا إلى السفينة "كاشمير".

# الفصل الثامن

سار جيليات مسرعًا على طول الشاطئ واخترق ميناء سانت بيتر ثم عرج ناحية سانت سامبسون متجنبًا بقدر الامكان أن يقابل الناس وكان عليمًا بكل المسالك والدروب ولذلك كان يختار أقلها ارتيادًا, سار في الطريق الذي سار فيه مرة خلف ديروشيت عندما انحنت ونقشت اسمه على الثلوج.

كم من السنين مرت على هذه الحادثة البسيطة ولكنه لايزال يذكرها!

ووصل الى سانت سامبسون ومرق بجانب البرافير ورأى زورقه لايزال راسيًا حيث ربطه ليلة أمس، وحركة البحارين قائمة على قدم وساق. على حين وقف بينهم ليذري يلقى بتعليماته في صوت كله تفاؤل ومرح.

ألقى جيليات نظرة على حديقة منزل ليذري.. وخفق قلبه عندما شاهد المكان الذي وقفت فيه ديروشيت وكودري في المساء يتناجيان واعتصر الألم قلبه عندما تحولت عينه لتستقر على الحجر الذي طالما جلس عليه يختلس النظرات الى ديروشيت وهي في النافذة أو في الحديقة.

وصل إلى منزله.. ووجده كما تركه في الصباح عندما لبس مبكرًا وخرج ليقوم بتلك المهمة الشاقة.. مهمة الجمع بين ديروشيت وكودري بالزواج.

ثم دخل إلى غرفته وكانت نافذتها مفتوحة، وآلته الموسيقية التي طالما عزف عليها بالليل ليوصل نغماتها إلى ديروشيت معلقة على الحائط، والإنجيل الذي سلمه له كودري على المنضدة.

خطا جيليات الى داخل الحجرة وتقدم من المنضدة ووضع يده على الإنجيل ثم خرج بعد أن أغلق باب الحجرة. وباب المنزل بالمفتاح.

لم يتجه ناحية سانت سامبسون. بل اتجه مباشرة ناحية البحر مخترقًا حديقته ومتخطيًا سورها القصير وكان في اختراقه الحديقة على حذر من أن تطأ قدمه أية زهرة.. لأن ديروشيت كانت تحب الزهور.

وكان منزله مطلًا على البحر وأمامه بعض الصخور التي يمتد منها داخل البحر لسان طويل ينتهي بصخرة مرتفعة الشيء وكانت جلسة جيليات المفضلة فوق هذه الصخرة.

خطا فوق صخور اللسان في خفة حتى انتهى الى تلك الصخرة ونادته امرأة كانت تصطاد

سمكًا على الشاطئ قائلة:

- خذ حذرك. إن المد يرتفع..

ولكنه لم يأخذ حذره، بل لم يسمع هذا التحذير.

وعندما وصل إلى الصخرة المرتفعة وقف ونظر حوله.

كانت السفينة "كاشمير" قد أبحرت ولكنها لم تكن ابتعدت كثيرًا عن ميناء سان بيتر واتجهت الى ناحية جيليات. قبل أن تتوغل في البحر من جهة الشمال الغربي.

جلس جيليات فوق الصخرة، وعيناه مركزتان على السفينة، واعتراه إحساس شديد بالبرودة ولكنه لم ينتبه الى أن المد قد ارتفع وأن الماء قد غطى قدميه واقتربت منه السفينة أكثر وارتفع صوت رفاصاتها وهي تلطم سطح الماء في عنف مخلفة وراءها رغوة عالية من الزبد الأبيض وأمكن جيليات أن يرى سطح السفينة بوضوح ورأى العروسين هناك - كودرى وديروشيت - جالسين متلاصقين كطائرين والشمس ترسل أشعتها في تلك الساعة من منتصف النهار وكان رأس ديروشيت مستندًا على كتف كودري على حين التفت ذراعه لتحيط بخصرها في حنان. وامتدت يده الثانية لتمسك يدها وتتشابك أصابعهما في نشوة. كان المقعد الذي جلسا عليه أشبه بعش الطير هجع فيه الحبيبان وقد اكتسى وجههما بنور وضاء. وعند اقتراب السفينة من الصخرة سمع جيليات ديروشيت وهي تقول لكودري:

- انظر.. يبدو أن هناك شخصًا يجلس على الصخرة.

ومرت السفينة... وأخذت تبتعد.

وفي أقل من ربع ساعة كانت السفينة قد ازداد ابتعادها في البحر، وبدأ حجمهما يصغر في عيني جيليات اللتين لم تفارقاها لحظة, لم ينتبه إلى أن المد قد زاد ارتفاعه ووصل الماء الى ما فوق ركبته.

هبت ريح خفيفة ساعدت على سرعة السفينة، وابتعادها حتى خرجت من حدود مياه جيورنسي، وكانت عينا جيليات مازالتا معلقتين بها، وكان المد أيضًا قد وصل إلى خصره وغمر نصفه الأسفل بالماء. وحامت فوق رأسه بعض طيور البحر وأخذت تنعق كأنما تحذره الخطر المحيط به..

مرت ساعة وكانت السفينة قد وصلت إلى حدود الأفق وأصبحت تبدو على سطح الماء كنقطة بيضاء صغيرة لا تكاد تلتقط العين صورتها.. ووصل الماء إلى كتفه.

ومرت ساعة أخرى ولم يكن للسفينة على سطح الماء أي أثر أمام عيني جيليات اللتين كانتا لاتزالان محدقتين في الاتجاه الذي سارت فيه السفينة وازداد نعيق طيور البحر فوق جيليات الذي لم يكن يحس بأي شيء حوله، كان يجلس كالمأخوذ أو كالمسجون الذي سلبت منه حواسه بفعل قوة خارقة. وكأن حواسه كلها قد تركزت في عينيه، فهما حائرتان تبحثان عن العزيز الضائع المفقود الذي ابتلعه فضاء البحر فأصبح لايراه.

ولم يعد يظهر في جيليات إلا الرأس، أما باقي جسمه فقد غطاه المد دون أن يحس أو يعي شيئًا.

مالت الشمس ناحية المغيب.

واتسعت حدقة عينيه دون أن يبدو فيهما تعبير معين اللهم الا تعبير المقترب من الخلاص.

ثم خيم عليهما شبح الموت ليكسو نظراتهما بظلاله السوداء بالرغم من أنهما كانتا لاتزالان محدقتين ناحية الأفق.. حيث اختفت السفينة كشمير في رحلتها وكما اختفت السفينة خلف خط الأفق اختفى رأس جيليات تحت سطح ماء المد الذي بلغ ذروة ارتفاعه، ولم يعد هناك شيء يُرى غير سطح الماء.